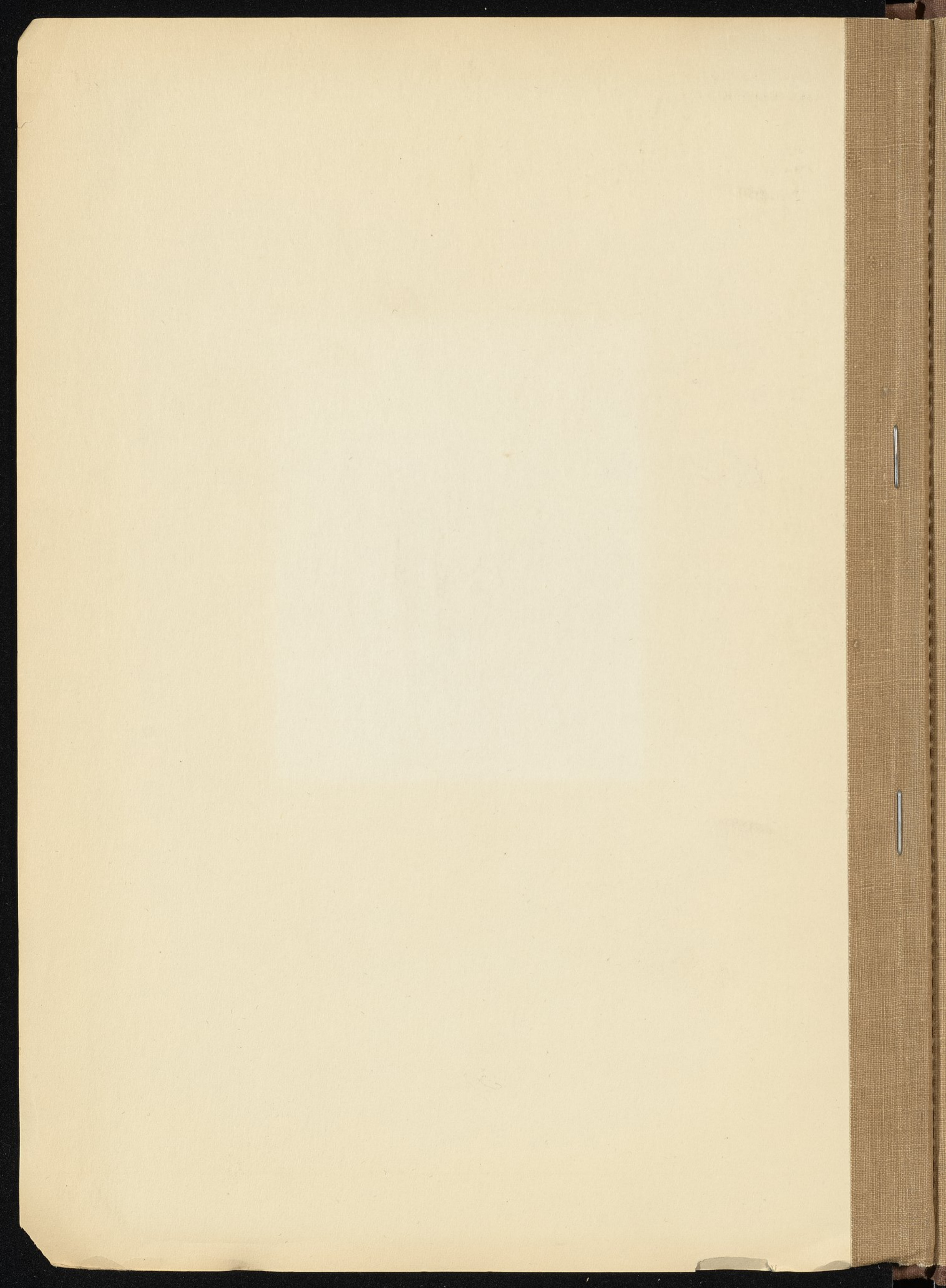
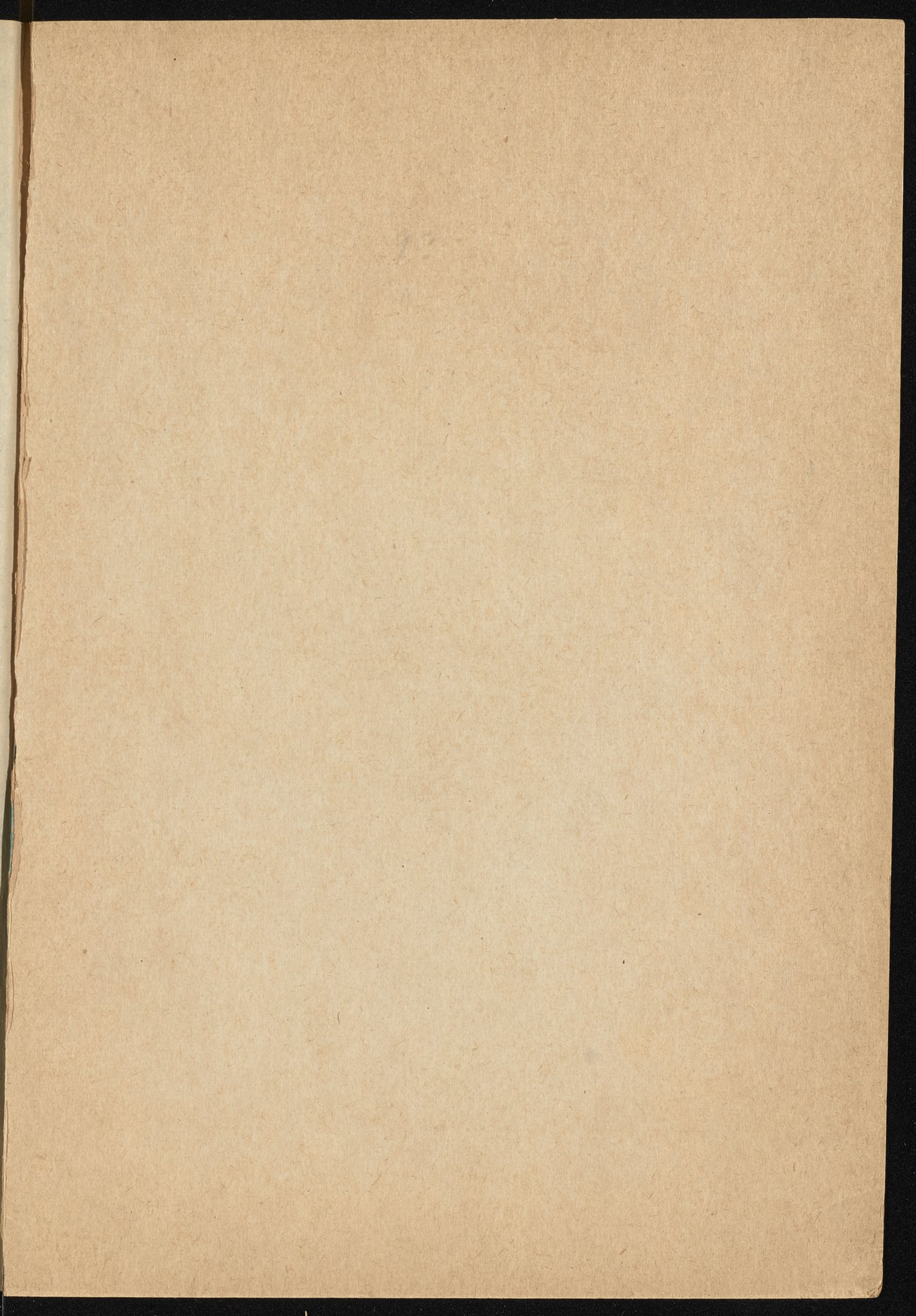

Gaylord
PAMPHLET BINDER
Syracuse, N. Y.
Stockton, Calif.


IN LVMINE TVO VIDEBIMVS LVMEN
SIGILLVM · COLLEGII · COLVMBIAE · NOVI · EBORACI




محمود تيمور
شفاه غليظة



محمود تيمور

شفاه غليظة

وقصص أخرى

الطبعة الأولى — مارس ١٩٤٦

مطبعة الاستقامة بالقاهرة

شفاهٌ غليظة

من عادتي أن أتفادى من الذهابِ إلى المَصارفِ في الأيامِ الأُولى من الشهر ... ولكن اتفق لي أن قصدتُ إلى « المَصرف الوطني » في مطلع الشهر لأصرف صكًا بخمسةِ جنيهات هي ما بقِيَ لي على أحد عُملائي من أتعاب قضية.

وكنتُ في جَمعٍ زاخرٍ أدافعُ جهدي في سبيلِ الوصول إلى نافذة الصُكوك وقد أخذ مني الضِّيقُ كلَّ مأخذ. فلمحتُ وأنا مدهوشٌ مَغيظٌ فتاةً تمرُقُ إلى النافذة بين صفوفِنا غيرَ معْنِيَّةٍ بأحد. وانطلقَ لساني بلفظةِ احتجاجٍ قابلتها الفتاة بإجابةِ تحدٍّ خشنةٍ، فازددتُ سُخطا، ولكن لم يُجْدِ سُخطي نَفْعًا.

وبينما كنتُ خارجًا من المَصرف، وقد قبضتُ قيمةَ الصَّكِّ، صدمني شخصٌ صَدْمَةً أزعجتْني، فالتفتُّ فإذا بالفتاةِ عينِها تُسابقني نحو الباب، فرمقتها بنظرةٍ نَكراء، وهممتُ أن أصيحَ بها مهدِّداً متوعِّداً فعاجلَتْني بابتسامةٍ رقيقةٍ وهي تردِّد:

ألف معذِرة! ... لم أقصد البتَّةَ أن أُسيءَ إليك ..

فنظرتُ إليها ولساني لايزالُ ناقمًا ثائراً، فلم تدَعْ لي فرصةَ التكلُّم، بل واصلتْ قولَها: كنتُ قليلةَ الذَّوْقِ معك مرتين ... ولكني أؤكِّدُ لكَ أني لم أفعلْ ذلكَ عن عَمْد ... إنهم يُرهقوننا بانتظارٍ مُضجرٍ مُثيرٍ للأعصاب، ولدَيْنا أعمالٌ لا تحتملُ إضاعةَ الوقت!

كانت تتكلمُ وابتسامتُها تزدادُ إشراقا ونَضارة ، فقلتُ لها وقد مرتْ على فمى بَسْمةٌ عابرة : هذا صحيح ... إنهم يرهقوننا بالِانتظار ... ولكن لا تَنْسَىْ يا آنسةُ أننا فى أولِ الشهر ... فللمَصْرِفِ عُذْرُه !

— أُوافقكَ على أن للمصرِفِ بعضَ العذر لا العذرَ كلّه ... على الرؤساءِ أن يدبّروا الأمرَ وأن يبذُلوا أقصى الجهدِ فى سبيلِ إراحة العملاء ... لقد أضاعوا علىَّ محاضرةً كان لِزامًا أن أستمعَ إليها فى الجامعة !

— أطالبة أنتِ ؟

— فى كلّيّةِ الآداب ...

— حسنٌ جدًّا ...

ورأيتُني أسيرُ وإيّاها فى اتجاهٍ واحدٍ من الطريق ... كانت سمراء على شيء من الملاحةِ ترتدى ثوبًا متواضعًا لا يدلُّ مظهرُه على اليُسْر ، وإن احتفظ بظلٍّ من الأناقةِ والذوق السليم ... لا يميّزُها عن مثيلاتِها ممن يُصابحُهنّ عابرُ الطريقِ ويماسِيهنَّ إلا سِمَةٌ خاصة : شفتاها ! ... أجل شفتاها ، بيتُ القصيد فيها ... كانتا شفتين غليظتَيْن لا أراهما منطبقتيْن لحظةً بل منفرجتين أبداً ، تسمحانِ لِخطٍّ أبيضَ من الأسنانِ أن يكشفَ عن تألّقِه وتناسُقه ... وإنك إذْ تنظرُ إلى الشَّفَةِ العُلْيا منهما تلحَظُ على الفورِ كأنها تحاولُ دائمًا أن تنأى بنفسِها عن رفيقتها في إباء وترفُّع ، ولقد تركّزَ هذا الترفُّعُ والإباء فى نُتُوءٍ يتوسَّطُها ، نتوءٍ يماثِلُ من وجوهٍ شتّى حَلَمَةَ الثَّدْيِ يجتذبكَ بتكوينِه الفنّيّ ويُرْغِمُكَ على أن تُدْمِنَ النظرَ إليه ...

وكنا قد قارَبْنا « شارعَ فؤادٍ الأولِ » عن كَثَب من مشربِ « الأمريكين » فسمعتُها تقولُ : أتُزْمِعُ ركوبَ الترامِ من هنا ؟

— بل أقصدُ إلى « الأمريكين » لاحتساءِ قدحٍ من الشاى قبلَ الذهاب إلى المحكمة ...

— اتفاق عجيب ... لى زميلة ستوافينى الآن فى المَشْرَب كى ترافقنى إلى الجامعة ...

— إذن طريقُنا واحد ...

فقالت وقد خطَرَتْ على محيَّاها ابتسامةٌ وضَّاحة : يلوحُ لى ذلك !

وأردْنا اجتيازَ الطريقِ، فاعترَضَنا سَيْلٌ من العَرَبات والناسِ يزحَمُ بَعْضُها بعضاً فمددْتُ لها يَدِى فأمسكتْ بها فى رِفق ، وعَبَرْنا «شارعَ فؤادٍ» من جانب إلى جانب .

وقالتْ لى ونحنُ نصعَدُ إلى الطبقةِ العليا من المَشْرَب :

أعَلَى موعدٍ أنتَ فى المحكمة ؟

— مع أحدِ العملاء ...

— أنتَ محام ... ؟

— يلوحُ لى ذلك !

فأرسلتْ ضِحكةً خفيفةً تعالتْ على أثرِها شَفَتُها العُليا فى اختلاجةٍ رشيقةٍ على حينِ أخذ النتوء الذى يتوسَّطُ هذه الشفةَ يتقلَّصُ وينبسطُ فى جاذبيَّة أخَّاذة ...

وأخرجتُ محِفظتي وتناولتُ منها بطاقةً قدَّمْتُها إليها قائلا :

قد تحتاجِينَ إلى محام ... لا قَدَّرَ الله !

فتناولت البطاقةَ باسِمَةً ، ونظرتْ فيها تقرأُ اسْمِى وتقولُ :

تشرَّفنا يا أستاذُ ... سمعتُ اسمَك قبلَ اليوم ... ما أسعدَنى بهذا التعارُفِ !

— الشَّرَف والإسعادُ لى يا آنسةُ .

وكنا قد بلغْنا الطبقةَ العليا ، فدارت الفتاةُ بعينيها فى المكان متفحِّصةً ، ثم همهمت : لم تحضر زميلتى بعدُ ...

ولم يكن في المكانِ إلا عَدَدٌ قليل منتشِرٌ هنا وهنالِك ... فقلتُ :

وهل تنتظِرِينَها ؟ ...

— يحسنُ بي أن أفعلَ ...

— أيسوءكِ أن يكونَ انتظارُكِ لها على مائدتي ؟

فابتسمتْ ، ولكن ما أسرعَ أن تزايلتْ ابتسامتها وهي تقولُ :

أخشى عيونَ الفضوليين !

— وهل تُلقِين بالاً لأهلِ الفُضولِ ؟

— كلاّ ... ولكن ...

— ولكن ماذا ؟

— أليس من النَّزقِ أن تُجالِسَ فتاةٌ رجلاً لم يَمْضِ على معرفتِها به غيرُ لحظات ؟ !

— هذا موضوعٌ نستطيعُ أن نجعلَه مدارَ نقاشنا على مائدةِ الشاي ! ...

— ولكن ياسيدي ...

— تكلَّمِي ...

— إنها المرةُ الأُولى التي أجلِسُ فيها إلى رجلٍ في مُنْذُ عامٍ ...

— حتى إذا كان من أقربائكِ ؟

— وهل أنتَ من أقربائي ؟

— هَبِي ذلكِ ! ...

— لِمَ هذا التَّشَبُّثُ ؟

— محامٍ يرغَبُ في كَسْبِ قضيته ... !

— وهل تحوَّلَتِ المسألةُ قضيةً ؟

— قضيةُ « صداقةٍ » أرغَبُ في توطيدِها ! ...

— ماذا تقولُ زميلتي إذا رأتْنِي معكَ ؟

— ألا تَرَيْنَ عيونَ الناسِ قد بدأت تَرْمُقنا ؟ !

— هذا ما كنتُ أتوقَّعهُ ...

ودنونا من أقربِ مائدة وجلسنا إليها . وسرعانَ ما أقبل علينا غلامُ المَشْرَب ، فنظرتُ إليها وقلتُ : بمَ تأمُرين ؟

— بقدحٍ من الشاى ...

فقلتُ للغلام : قدحين ...

وأخذت الفتاةُ تطوفُ بنظرِها صامتةً فيما حولها وأنا أُراعيها ...

وسمعتُها تهمهم : ما أسمجه !

ثم واجهتني بقولِها : إنه لم يحوِّل نظره عني لحظةً منذ قدِمنا ...

— من ؟

— هذا الوقِحُ ... !

قالتْ ذلك وأشارتْ بعينيها إلى رجلٍ بدينٍ له وجهٌ كالرغيفِ المُقَبَّبِ المتوهِّج ، ووصلتْ جملتَها السابقةَ بقولها :

إنه من حمقى الأثرياءِ الذين يخالونَ الدنيا طوعَ يمينهم ...

— أتعرفينه ؟

— ومن أين لى أن أعرِفَه ؟

— كيف علمتِ إذن أنه من حمقى الأثرياءِ الذين ...

فقاطعتنى فى لهجةٍ حازمة وقد زوتْ ما بين حاجبيْها : إن وجهه بذلك ينطِق !

— أنتِ دقيقةُ الملاحظة ...

وأقبلَ غلامُ المشرَبِ بالشاى فوضعه أمامنا ، فملأتُ لها قدحها وملأتُ لى قدحى ، ومضيْنا نجرَعُ الشاى على مهل . وأخرجتُ علبةَ لفائفى وقلت : أتسمحين ؟

— دخّن كما تشاء ، ولا حرجَ عليك ...

— وأنتِ ؟

— فحدجتنى بنظرةِ عتابٍ قائلةً : سيدى !

— لا تؤاخذيني ...

وتناولتُ لفافةً وأخذتُ أُدخنُها لحظةً فى صَمْت . ومرّ أمامنا الرجلُ البدين ذو الوجه المقبَّبِ يدرجُ فى جُهْدٍ ومشَقّة . فألقى علينا نظرةً سانحة وتابَعَ سيْرَه ... وسمعتُ الفتاةَ تغمغم : يا لَلْوَقحِ !

— حقًّا إنه لَسَمْجٌ ...

— أمَا لاحظتَ كيف كان ينظرُ إلىّ ؟ لا أحتملُ رؤيةَ هذا الضَّرْبِ من الناس ! ... إنهم يمثِّلون أمامى ذلك النَّفَرَ البائدَ من أمراءِ الإقطاع ... لا تؤاخِذْنى !

— على أيِّ شيء أؤاخذُكِ ؟

— قد يكونُ فى حَمْلتى على هذا الضرب من الرجالِ ...

— وهل تَرَيْنَنى من هذا الضرب ؟

فضحكتْ في خفّةٍ وقالت : لا أقصِد ذاك ، ولكن يجب أن أصرِّحَ لكَ بأنى أمقتُ هؤلاء الأثرياءَ المتقاعِدينَ ذوى رُءُوسِ الأموال الذين يمتصُّونَ دَمَ الشَّعب !

— كلامٌ وجيه ...

— إذن أنتَ من أنصارِ الاشْتراكية !

— وهل قلتُ ذلكِ ؟

— أيَّ مذهبٍ اجتماعيٍّ تعتنقُه إذن ؟

— لم أُلقِ على نفسى هذا السؤالَ حتى الساعةِ !

— أنتَ متعِب ... !

— أشكرُ لكِ !

ونظرَ كلٌّ منا إلى الآخرِ ، ثم استرسلْنا فى قهقهةٍ عاليةٍ وجَدْتُنى أثناءها أرنو إلى شَفَتيها الغليظتيْن وهما تلتطمان وتتدافعان ، وأرقُب فى شَغَف ذلك النتوءَ الجميلَ ، حتى وَدِدْتُ لو طالت ضِحكَتُها وقتاً ...

وسمعتها تقول : اِعترفْ بأنك غيرُ صريح !

— قد يكونُ ذلك ...

— أما أنا فعلى العكسِ صريحة جدًّا ...

— هـذا حق ... إذْ أعلنتِ لى فى وَضحِ النهار أنكِ تميلينَ إلى النظامِ الاِشتراكىّ !

— ألستُ على صوابٍ في هـذا الميْل ؟ ألا توافقنى على أن التوزيعَ الاِقتصاديَّ في المجتمعِ الراهنِ غيرُ عادلٍ ؟

— اوافقكِ ...

— بلسانِك وحدَه ؟

— بل بقلبى !

— إذن لقد استطعتُ أن أجتذبَكَ إلى صفى !

فقلتُ فى لهجةٍ هينة : أوَ كنتِ تظنين أنكِ غيرُ قادرةٍ على اجتذابى ؟

فأسبلتْ جفنيها وهى تقول في صوت لين المكاسِر :

يبدو لى أنكَ سهلُ الاِنقياد سريعُ التأثُّر !

فقلتُ لها وعيناي لاتفارقانِ شفتيْها : لا في كلّ الأحيان !

وكانت يدُها على المائدةِ تعبَثُ بملعَقةِ الشاى ، فمددتُ يدى وأطبقتُ كفى على راحتِها ، فاجتذبتْ يدَها فى غيرِ عُنْف . وألقتْ بنظرةٍ خاطفةٍ على ساعةِ الحائط ، ثم نهضتْ وهى تقول : لقـد تأخرتْ زميلتى عن الوعد ، وقد أطلتُ فى انتظارى إياها ... يجبُ أن أُغادرَ المكانَ .

— أيكونُ قد بَدَرَ مني شىءٌ ساءَكِ ؟ !

— أنا شاكرةٌ على كلِّ حال حُسْنَ ضِيافتِك ...

— أنا آسفٌ إذا كنتُ ...

— لا يُساوِرْكَ من ذلكَ شيءٌ ...

ومدَّتْ إليّ يدَها وهي تبتسمُ ، وقالت : إلى اللقاءِ ياسيدى ...

— إلى اللقاءِ يا آنسة ...

واتجهتْ نحوَ السُّلَّمِ وانحدرتْ عليه مُسْرِعةً . وعُدْتُ إلى مقعدِى ، وأخذَت الشَّفتانِ الغليظَتانِ ذَواتا النُّتوءِ اللطيفِ تتراءيانِ لى فى كلِّ لحظة ... ولا أدرى كم مضى علىَّ من الوقتِ وأنا فى جَلْستى هذه . ولكنّ ظهورَ غلامِ المَشْرَبِ أمامى أيقظَنى من حُلمى . وعلمتُ أنه جاء ليقبِضَ ثمنَ الشاى ؛ فدفعتُ يدى فى جيبِ سُترتى . ولشدَّما كان عَجَبى إذْ لم أجِدْ مِحفَظَةَ نقودى فى مكانِها ، وأسرعتُ أبحثُ عنها فى جيوبى الأُخَرِ وأُمْعِنُ فى البحثِ ، ولكن على غيرِ طائل ... أين اختفتْ ؟ ومن أخَذَها ؟ ولمحتْ فى خاطرى صورةُ صاحبةِ الشفاهِ الغليظة ... أممكنٌ هذا ؟ ... وعدتُ أبحثُ ثانيا ... لم يسلُبْنى المِحْفظةَ أحدٌ فى الشارع . إنى على يقينٍ من أنها كانت فى جيبى حينما دخلتُ مع الفتاةِ فى هذا المكان ... ونظرتُ إلى غلامِ المشرَبِ ، وقلتُ مردِّداً فى حِدَّة :

لقد أخرجتُ المِحفظَةَ أمامَها ... أعطيتُها بِطاقتى ... هذا مؤكَّد !

فنظر إلىّ فى حيرةٍ وقال مجمجما : ولكن ... ثمنُ الشاى ياسيدى !

— أتظنُّ أنى محتال أيها الغبىّ ؟

— العفوَ ... العفوَ ... إنما ...

ودسستُ يدى على الفورِ فى جيبِ صِدارى ، فألفيت معى لحُسْنِ الحظ من النقودِ الصغيرةِ ما يَفى بما هو مطلوبٌ ، فألقيتُهُ إليه وخرجتُ أعدو وأنا أُكرِّرُ :

المحتالةُ ... الماكرةُ ... سأُدرِكُها ... وسأُسْلِمُها إلى رجال الشُّرْطة ! ...

وارتدْتُ المِنْطقةَ حولَ « الأمريكين » أتصفَّحُ السابلةَ وأتفقَّدُها بينهم وقتا غيرَ قصير ... ولكن بلا جَدْوَى !

وقصدتُ فى النهاية إلى مكانِ عملى وأنا مُحنَقٌ ثائر ! ..

*

وفى اليوم التالى بينما كنتُ فى مكتبى أُقلِّب بعضَ المجلَّاتِ الأوربية المصوَّرة استوقفتْ نظرى صفحةٌ مكتوبٌ فى رأسِها : « مسابقةُ الشِّفاه » تحوِى مجموعةَ صُوَرٍ مختلفةٍ لشفاهِ بعضِ الغانياتِ الأمريكيَّاتِ من كواكِبِ « السينما » وقد وُضِعَتْ جوائزُ لمن يكشِفُ عن صواحِبِ هاتِه الشفاه . ووقع بصرى على فَمٍ غليظٍ منفرجِ الشفتين يتوسَّطُ العليا منهما نتوءٌ ملحوظ ... فمضيتُ أرنو إليه طويلا . ولم ألبثْ أن انتزعتُ الصفحةَ من المجلة وقصصتُ منها الجانبَ الذى يشتملُ على صورةِ ذلك الفمِ ... وقذفتُ بما بَقِيَ من الورقةِ فى سَلَّةِ المهملات . وتناولتُ معجَمَ « أبوت » الأثريَّ الغارقَ دائماً فى سُباتِهِ العميقِ على مكتبى ، وأَوْدَعتُ حنايا صحائفِه تلك القُصاصةَ ....

وكثيراً ما ألفيتنى بعدَ ذلك أثناءَ درسى لقضيةٍ من قضاياىَ آخُذُ المعجم شاردَ الذِّهن وأمضِى عَجِلًا أُقلِّبُ صحائفَه ، وسرعانَ ما أَجِدُ أمامى صورة « الشفاه الغليظة » تحدِّقُ فىَّ فأحدِّقُ فيها . ومن ثَمَّ يَفيضُ على نفسى إحساسٌ بَهِيج يُفضِى بى إلى أحلامِ عِذاب !

*

وترادفتِ الأيام ... وكنتُ يومًا فى « قسم البغَّالة » أُجاذِبُ « المأمورَ » الحديثَ فى قضيةٍ من القضايا ، فتعالت بغتةً أصواتٌ خارجَ الحجرة . وفى لحظة اقتحمَ علينا المكان رجلٌ جاوزَ سِنَّ الشباب يبدو من هيئتِه أنه من ذَوِى المعاشِ ، وهو يَجذِبُ فتاةً من يدِها وينعتُها بأرذَلِ النعوتِ ، راميًا إياها بالسَّرقة والِاحتيالِ ، على حينِ كانت الفتاةُ تُنْكِرُ فى تعنُّتٍ ومكابرة ، وتحاولُ أن تُخلِّص نفسَها منه .

وبرزتْ أمامى فى الحال « الشِّفاهُ الغليظةُ » ذاتُ النتوء الملحوظ ، وعرفتني على التو ، وسرعانَ ما وجدتُها تخاذلَتْ فأمسكتْ عن الكلام ، وقد طغى على محيَّاها امْتِقاع ! ... وكان الرجل مابرحَ قابضًا على يدِها يسوقها فى عُنْفٍ إلى مكتبِ « المأمور » ولسانه ينهمرُ بسَيْلٍ من سِبابِه البَذيء . فتقدمتُ منه وأخليتُ يَدَها من يدِه ، وقلتُ له :

تذكَّرْ ياسيدى أنكَ في دارِ الشُّرْطة ... شأنُ الفتاةِ الآنَ موكولٌ إلى المأمور .

فنظَرَ إليَّ الرجلُ نظرةً عاتبةً وقال فى تأْتَأةٍ : لقد سرقَتْ حافظةَ نقودى حينما كنتُ في القهوةِ منذُ أيامٍ ، وقد اختفتْ ولم أعثرْ عليها فى ذلك الوقت ، واليومَ وجدتُها اتفاقًا فى الطريق ، فقبَضْتُ عليها بمعاونةِ رجال الشُّرْطة ... يجبُ أن تعيدَ إليَّ ما سَرَقَته ... إنها محتالةٌ ... ماكرةٌ ... لِصَّة ! ...

فلم تعترضْ على كلامِه الفتاةُ ، بل ظلَّتْ ممسكةً وهى تنظرُ أمامها نظرًا ثابتًا .

فقلت للرجل : ماذا أخذتْ منكَ ؟

— ثلاثمائةٍ وثلاثينَ قرشًا ... غيرَ ثمنِ المِحفَظَة !

فملْتُ على « المأمورِ » وأسررتُ إليه : إنى أعرفُ هذه الفتاةَ ، وأمرُها يهمُّنى ، فإذا قبِلْتَ ضمانَتِي وأطلقتَ سراحها كنتُ لكَ شاكرًا ...

وألححتُ عليه ، وكان ممن يثقون بى ، فقبِلَ ... فانتبذتُ على الفوْرِ بالرجل مكانًا قصيًّا ، ونَقَدْتُه ما طلَبَ . وخرجتُ آخذًا بيد الفتاة .

وما كدنا نترك « القسمَ » حتى رأيتها تُكَرْكِرُ فى الضَّحِكِ على حين بغتة ، فنظرتُ إليها مغضَّنَ الجبينِ ، وقلت : حقًّا إنه موقفٌ يثيرُ الضَّحِك !

فنظرتْ إليَّ بمؤْخرِ عينيْها وقالت : أتريدُنى على أن أبكيَ ؟ !

— كان الأجدرُ بكِ على الأقلِّ أن تصمُتى !

— ولِمَ ؟

— ألا تستشعرِينَ الخَجَل ؟

— أتبغِى أن تُلْقِى علىَّ محاضرةً فى علم الأخلاق ؟ !

— وهل تُجْدِى معك هذه المحاضرةُ !

فأطلقتْ قهقهةً وقالتْ :

ليس لديَّ من الوقتِ ما يسمَحُ لى بسماع أمثالِ هذه المحاضرات !

فضغطتُ يَدَها فى عُنف ، وقلتُ : كُفى عن هَذرِكِ ... وإلا ...

فصوَّبتْ إلىَّ نظرةً حادّة وقالت : وإلّا ماذا ؟

أتظُنّين أننى غيرُ قادرٍ على تأديبِك ؟

— ومن تكونُ أنتَ حتى تبيحَ لنفسِكَ هذه السُّلطَةَ ؟

— أُبيحُها لنفسِى بمحْضِ إرادتى !

فتضاحكتْ معابِثَةً وقالتْ : ولكننى لا أبيحُها لك !

فازددتُ فى ضَغطِ يدِها وقلتُ :

كُفِّى عن هذا الهَذَرِ ... لن تَجِدِى من ورائه إلا أسوأَ العواقِبِ ...

فصاحتْ وهى تَشُدُّ يدَها : ليس لك شأنٌ بى ... أترُكْ يدِى ... أسامعٌ ؟ !

فلم أُعِنَ باحتجاجِها ، بل تماديتُ فى ضَغطِ يدِها ، فضعُفَ صوتُها واختلج ،

والتمعتْ عيناها ببريق الدُّموع ... وسمعتُها تغمغم : رجلٌ قاسٍ بلا قلب !

وانطبعتْ على شفتيها مظاهرُ الذلِّ والِانْكسار ، فأكسبَتْهُما منظراً خلّاباً ...

ووجدتُنِى أخفِّفُ الضغطَ عن يدِها ، وواصلتْ كلامَها قائلةً :

ماذا تريدُ منِّى ؟ ... قلْ ... ماذا تريدُ ؟

فأجبتُ : أريدُ أن أقوِّمَ من اعوجاجِك ، وأن أُصلِحَ من نفسِكِ !

— ولم كلُّ هذا يا حضرة ؟

فقلتُ متباطئًا وعيناى لا تفارقان شفتيها :

إنه عمل من أعمالِ الخير اقدّمُه إلى الإنسانية !

— الإنسانية ؟ وهل تَعنيكَ الإنسانيةُ إلى هذا القَدْر ؟

— يلوحُ لى ذلك ... !

— عجيبٌ أمرُكَ ... أتَعْلَمُ كم مالا أضعتَ حتى الساعةِ فى سبيلِ هذه الإنسانيةِ ؟

— أَعْلَمُ !

— وقد تَفْقِدُ أكثرَ من ذلكَ فى المستقبل !

— محتملٌ هذا ...

— حباً فى الإنسانية ؟ !

— أرغبُ فى الأخذِ بناصِرِ مخلوقٍ تاعِسٍ وانتشالِه من هاويةٍ تردَّى فيها ... فحدَّقتْ فىّ وقتاً صامتةً ، ثم قالتْ : أتظنُّ أننى لِصَّة ؟

فابتسمتُ قائلاً : معاذَ الله !

— ظَنَّ ما تَظُنُّ ... لماذا تتمتعون أنتم بالمالِ وفقيرةٌ مثلى لا تَلْقَى ما يَسُدُّ الحاجةَ ؟ ...

— عُدْنا إلى الاشتراكية ... !

— أنا لم أسرِقْ ... إنى أنالُ حقاً مشروعا ... إنى أُعيدُ إلى طبقتِنا المَهِيضَةِ الجناحِ بعضَ ما سلبتُمُوها من رِزْق !

ومضتْ فى حديثِها مهتاجةً بالغةَ السَّطْوة ، وكنا نسيرُ جنباً إلى جنب فى خُطاً وئيدةٍ ، فتركتُها تُفْرِغُ ما فى جَعْبَتِها ، حتى إذا بَلَغَتِ النهايةَ قلتُ لها : إنكِ لقويةُ الحُجَّة !

— أتهزأُ بى ؟

— كلا ...

— مازلتَ تحسبُنِى لِصَّة ؟

— لا أُريدُ أن أحسبكِ كذلكِ !

— لا تريدُ ؟ ! ...

ووقفتْ قُبالتي متفحصة ثم أردفتْ قائلةً : ولماذا لا تريدُ ؟

— هكذا ...

— ولكنني أؤكدُ لكَ أنني لستُ لصّةً . إنني لم أُقْدِمْ على ما أقدمتُ عليه إلا لأسباب قاهرة !

وأمسكتْ برهةً ... ثم استأنفتْ حديثها : أسبابٌ مشروعة طبعاً ! ...

— هذا محتمَل ...

— لي أبٌ مصابٌ بمرضٍ لا يُرْجَى شفاؤه وأربعةٌ من الإخوةِ والأخواتِ كلُّهم أطفال ، وأنا وحدى أعولهم ... إن عملي المضنيَ في حياكةِ الأثواب لا يُدِرُّ عليَّ إلا النَّزرَ الذى لا يُغْنى !

— ومن أجل هذا أرغَبُ في إصلاح أمرِكِ !

— ألديكَ عملٌ أستطيعُ أن أقومَ به ؟

— آمُلُ أن أجدَ هذا العملَ ...

— ما نوعُه ؟

— لا أستطيعُ أن أُحدِّدَه لك الآنَ ، ولكنْ أَعِدُكِ بأن أبذُلَ ما في وُسعي لأُهيِّئَ لكِ عملا نافعًا ...

فانطلقتْ تقلّبُ في وجهى عينيها المتسائلتين ، ثم قالت مهمهمةً : أتثِقُ بى ؟

— أرغبُ فى ذلكِ !

فابتسمتْ وقالت : سأزورُكَ فى المكتبِ ...

— إنى منتظِرُكِ ... هاكِ عُنْوانى ...

ودسَسْتُ يدى فى جيبى لأُخرجَ المِحفَظةَ ، ولكنها بادرتني بقولِها والابتسامةُ

مازالت تتموّجُ على محيّاها: إني محتفظة ببطاقتكَ التى أعطيتنيها فى الأمريكيين.

— حقّاً ؟!

فقالت فى صوتٍ خافتٍ ناعمِ النّبَرات، وهى تعبثُ بأصابعِها:

إنها بطاقة ثمينة ... لا أفرّطُ فيها ... أتريدُ أن تراها؟

— إنى أصدّقكِ ...

— شكراً لك ... والآن يجبُ أن أمضِىَ إلى البيت ... أنا آسفة إذ سبّبتُ لكَ متاعبَ كنتَ في غِنَي عنها ... كلُّ ما فقدْتَه من مالٍ لأجلى سأعيدُه إليكَ حتماً ... كن على ثقةٍ بأنني لستُ من الخُبْثِ وسوءِ الطويّةِ بالدرجة التى يتوهَّمُها الناسُ فىّ ... ستجدُ على الأيامِ مِصْداقَ ذلك!

— ماأشدَّ رغبتى فى تحقيق هذا ...

— سأزوركَ غداً فى المكتبِ ... إذا لم تجد لديكَ من ذلك مانعاً ...

— فى أيِّ وقت؟

— قُبيلَ الظُّهر ...

— سأنتظرُكِ ...

ومدّتْ إليَّ يدَها فاحتوتْ كَفّى راحتَها. ومكثْتُ قبالتَها وقتاً صامتاً أتملّى مفاتِنَها والغِبطةُ تَشيعُ فى نفسى، ثم همسْتُ: أتقبلِينَ أن نتناولَ الغَداءَ معًا؟

— كما تريدُ ...

— أشكرُ لكِ ...

— إلى المُلْتَقى ...

— أنا فى انتظارِكِ ...

وتركتْني وهى تبتسمُ فى عذوبة ... وطاب لى أن أعودَ إلى منزلى مترجِّلاً، وسرتُ فى خُطواتٍ هيِّنة. وكنتُ أثناء الطريقِ أدخنُ اللفائفَ

واحدةً إثرَ أخرى وأنا هـيمانُ أفـكرُ فيما مرَّ بى الساعةَ مع ذاتِ الشفاه ...
وساءلتُ نفسى مراتٍ : هل كنتُ مصيبًا في مَوْقِفِي منها ؟ ألم يكن الأجدرُ بى
أن أتركَها فى « القسم » بين يدى الشُّرْطةِ وأن أُعَزِّزَ التُّهمةَ ضدَّها عقابًا لها
ورَدْعًا لمثيلاتِها ؟ ... وهنا طَفِقْتُ أُناقشُ نفسى فى فلسفةِ العقوبة ، وما هى
أَقْوَمُ السُّبُلِ إلى إصلاح المجرِم على ضوءِ المباحث النفسية الجديدة وهِدَايةِ مبادئِ
الإنسانية الرَّحيمة . وانتهيتُ من هـذا النِّقَاشِ إلى نتيجةٍ اطمأننْتُ إليها وهى
أن صنيعى مع هذه الفتاةِ البائسةِ خيرُ مايفعلُه امرؤٌ كبيرُ القلب إنسانيُّ المَنزِع
وأننى جديرٌ بأن ألتزمَ هذا المبدأَ فى حياتى أبداً ...

دخلتُ منزِلى وتناولتُ عَشاءً خفيفاً . ثم قصدتُ إلى مكتبى لأدرُسَ بعضَ
القضايا . فـلم أجدْ ميلاً إلى العملِ ، بل أحسستُ تراخيًا ورغبةً في التمـدُّدِ على
المقعَدِ الفسيحِ ، ففعلتُ ... وامتدتْ يدِى إلى مُعْجَمِ « أبوت » وأخرجتُ
صورةَ « الشِّفاهِ الغليظة » ومضيتُ أتأمَّلُها مَلِيًّا ... إن لهـا أبًا مصابا بمرضٍ
لايرجَى له شِفاء وإخوةً وأخواتٍ أطفالا ... إنها تَقْضِى الليـلَ منكبَّةً على
الحائكة ... وماذا تربحُ من هـذه الحائكة ؟ كثيراً ماتدفعُ الفاقةُ بالمرءِ إلى
مهاوى الجريمة ، ومن ثَمَّ يهبُّ القانون مطالبًا بالعِقاب ... حقًّا إن فى الأوضاع
الاجتماعيةِ لمظالمَ فادحةً يجبُ القضاء عليها ... !

وفي صباحِ اليوم التالى نهضْتُ من فراشى وقد اعتزمتُ أن أتخلَّفَ عن
المحكمة .... ألا يَحِقُّ لى أن أمنحَ نفسى إجازةَ يومٍ واحد ؟ أفَحتْمٌ علىَّ أن
أستقبلَ كلَّ نهارٍ تلك الوجوهَ السَّمِجةَ ؟ وأن أتلقَّى هذه الابتساماتِ السخيفة
التى تحمِلُ طابَعَ الرِّياء ... ؟

وطلبتُ زميلى فى « التليفون » وأفهمتُه أنى منحرفُ المِزاجِ ، فعليه أن
يحُلَّ محلِّى فى المحكمة ... وأوصيتُ الطاهىَ أن يهـيِّئَ لى غداءً طيِّبًا ، وخرجتُ

إلى السوقِ فأتيتُ بألوانٍ ممتازةٍ من المُشهياتِ والحلوى ...

مكثتُ أنتظرُ قدومها . وطال انتظارى ، فقلقتُ وساورتنى ظنونٌ شتى .

وطال انتظارى أيضا . وألحّ الطاهى فى سؤاله : متى يُؤذنُ لى بتقديمِ الطعام ؟

وحلّت الساعةُ الثالثةُ ، ولم يظهرْ لذاتِ الشفاهِ الغليظةِ أثر ... !

*

وتعاقبتِ الأيام . . وبينما كنتُ فى مكتبى وقتَ الأصيل مع بعضِ عملائى منصرفينَ إلى درسِ قضيةٍ مهمّة ، إذْ دقّ « التليفونُ » وكان المتكلمُ : « مأمورَ قسمِ البغالةِ » فأخبرنى بأن الفتاةَ التى ضمنتُها ضُبطتْ متلبسةً بالسرقةِ ، فهممتُ أن أصيحَ به أنِ احبسوها ، فقد نفضتُ منها يدى ، ولكن وجدتنى على الفورِ أُلحُّ عليه في أن يبعثَ إلىّ بها على عجلٍ ، وعلىّ إصلاحُ الأمرِ ... فلم يقبلْ ، فرجوته مستعطفًا أن يفعلَ ، فهى فتاةٌ مريضةٌ فى طبعِها شذوذ يعالجُها طبيبٌ فى الأمراضِ النفسية ، وإنها من أسرةٍ كريمةٍ ولأبيها مكانة ملحوظة فى الهيئةِ الاجتماعية ، فمن واجبِنا أن نصونَه عما يَشينُه ... وأطلتُ فى حديثى ، فأكّدتُ له أننا سنبالغُ فى رقابتِها ومنعِ اتصالِها بالناس ، وأفضتُ له فى ذلك حتى قبِلَ ...

والتفتُّ إلى عملائى معتذراً عن مواصلةِ العمل ، فانصرفوا مُرغمين متذمّرينَ . وانطلقتُ أجولُ في الغرفةِ بخطًا مضطربةٍ وأنا أُجمجم :

سترَى ! ... سترَى ! ...

ولكننى لم أكنْ أعلمُ ما أفعلُ معها . كان رأسى مشحونًا بمختلفِ الصُّورِ المختلطةِ المتشابكة ، لا أستطيعُ أن أتبيّنَها أو أميّزَ بينها . وعجبتُ من أمرى : كيف رضيتُ أن أصوغَ للأمورِ هذه الأكاذيبَ العجيبة ؟ وكيف أسعفتنى بديهتى على اختراعِها بمثلِ هذا اليُسر ؟ !

وظللتُ على حالى تلكَ حتى قُرِعَ البابُ فوثبْتُ إليه أفتحه ، ورأيتُها أمامى خلفَها شُرطِىّ ، وسُرعانَ ماصرَفْتُه وجذبتُها من ذِرَاعيْها .

وسمعتُها تقول : لماذا أتوْا بى هنا ؟

فرميتُها بنظرةٍ محتدَّةٍ ، وقلتُ : يالكِ من سيئةِ الطبْعِ خبيثة !

— أراكَ ثائراً لأننى لم أَزُرْكَ كما وعدتُكَ ...

— أوَ تَظُنِّينَ أننى صدَّقْتُكِ ؟

— صدَّقْتنى ، وانتظرتَ مَقْدَمى بفارِغ ِصبْر ...

— أنا انتظرْتُكِ ؟ أنا ؟ ... هل بلغَتْ بىَ الغباوةُ أن أهْتَمَّ بشخصٍ حقيرٍ مثلِكِ ؟ !

— أجل ، أنتَ مهتمٌّ بهذا الشخصِ الحقيرِ ، مهتمٌّ به أشدَّ الإهتمام ... !

— اِخْرَسِى ...

— ولقد تعمَّدْتُ ألَّا أحْضُرَ ، لأدفعَكَ إلى انتظارى ...

— يا لَلْوَقِحَةِ !

— أما سببُ اهتمامِكَ بى فأمرٌ لايخفَى عليك . إنك تَهْوَانى . أجل تَهْوانى !

فصحتُ وقد أقبلتُ عليها متنمِّراً :

أنا أهواكِ ؟ أنا ؟ ... وهل فيكِ شيءٌ يُحَبُّ ؟

— أنتَ مُدَلَّهٌ بى ... ولكننى لن أُنِيلَكَ مُبْتَغَاكَ ... حتى القبلةُ الصغيرةُ سأمنعُها عنكَ !

— أنتِ أعجزُ من أن تمنعى عني شيئا ... ولكنني زاهدٌ فيكِ لحقارتكِ ... ماأشدَّ افتقارَكِ إلى مايجتذبُ الرجلَ !

— إنكَ تذوب شوقاً إلى لثْمِ شِفاهِى !

— شِفاهُكِ ؟ ... ها ! ها ! ... شفاهُكِ الغليظةُ المتورِّمةُ المُدَلَّاةُ كشِفاهِ

أقبح الزنوج ... ؟

— لن أنيلكَ شرف لَثْمِها أبداً ... ستظَلُّ محروماً إياها مهما يَسْتعِرْ لهيبُ غرامِك وتتأجَّجْ نارُ شوقِكَ !

— غرامي ؟ ... شوقي ؟ ... سأرِيك كيف أنا مغرمٌ بكِ مشوقٌ إليكِ ... سأرِيكِ !

واختطفتُ خيزُرانةً كانت مُلقاةً على أحدِ المقاعد ، وأمسكتُ « ذاتَ الشفاه » وانهلتُ عليها ضرباً ، ورأيتُها تحاولُ المقاومةَ باديءَ بدءٍ ، ولكنها وجدتْ مني مؤدِّباً عنيفاً عنيداً صعبَ المِراسِ ، فاكتفتْ بأن تحمِيَ جسمَها من لَسعِ العصا المَرِنةِ ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ... ثم انطلقتْ تستعطفُني وتسترحِمُني ، فلم أستجبْ لها ، بل ظَلِلْتُ جادًّا في الضربِ في مهارةٍ وتفنُّنٍ حتى أدركني التعبُ ، فتركتُها ... وجلستُ على المتَّكإِ أمسحُ وجهي وأُغمغم :

لعلكِ بعد هذا تُقلِعِينَ عن غَيِّكِ وتَثُوبِينَ إلى رُشْدِكِ ...

وألفيتُها تزحفُ إلى ركنٍ من أركانِ الغرفةِ تجمَّعتْ فيه وراحت تَنْشِجُ .

وقمتُ إلى مكتبي ، ومضيتُ أعبَثُ بأقلامي صامتاً ، وأنا أنظُرُ إليها من طرْفٍ خفيٍّ ... ثم قلتُ كأني أحدِّثُ نفسي :

ستشكرِينَ لي هذا الصنيعَ ... إنه درْسٌ نافع لكِ في الحياة !

فلم تُجِبْني ، بل جعلتْ تَنْشِجُ نشيجَ طفلٍ ذليلٍ مبتئس ! ...

ولبثنا وقتاً على هذا الحالِ ، هي في ركنِها تولولُ ، وأنا جالسٌ إلى مكتبي أعبَثُ بأقلامي وأُخالِسُها النظرَ الفينةَ بعد الفينة ...

وهممتُ أخيراً أن أذهبَ إليها لأترَضَّاها فوجدتُها ترفعُ رأسَها وتهمهم بهذه الكلمات : لم أكنْ أستحقُّ منكَ أن تعامِلَني بهذه القساوة ...

— بل تستحِقِّين ...

ومضتْ تمسَحُ وجهَها وتُنسِّقُ ماتشعَّثَ من شعرِها ، وهي تقول :

لوعلمتَ أيةَ عاطفةٍ طيبةٍ أُكنُّها لكَ لما فعلتَ معي مافعلتَ !

فتضاحكتُ قائلا : أيةُ عاطفة ؟

— لاتزِدْ من ألمي بهذه السُّخْرِيَة !

ونهضتْ تقصِدُ مكاني قائلة :

أُقسمُ لكَ إني كنتُ معتزمةً زيارتَك وَفْقَ الموعِدِ الذي ضَرَبناه ...

— أتعودِينَ إلى هَذَرِكِ ؟

— أُقسمُ لكَ إني صادقة في قولي هـذا ! لقد كنتُ حاضرةً إليك لولا وفاةُ أحدِ أقاربي ....

ودنَتْ مني وهي تتكلَّمُ حسيرةَ البَصَر : أأكونُ منكرةً لجميلِكَ إلى هذا الحدّ ؟

ودنتْ منّي أيضًا وهي تقولُ : ألم تشعرْ بأني أميلُ إليكَ ... ؟

فصِحْتُ : تميلينَ إليّ ؟ أنتِ ؟ !

وانكبَّتْ على ركبتيَّ تحتضِنُهما وهي تقولُ : أُحِبُّكَ ! أُحِبُّكَ ! ...

— وإذا كان هذا مبلغَ شعورِكِ ، فلماذا كنتِ تعانِدِينَ وتكابِرِينَ ؟

فرفعتْ رأسَها إليّ وعيونُها شَرِقَةٌ بالدموع وقالت : من فَرْطِ حبِّي لكَ !

ونهضتْ فطوّقَتْ عنقي بذراعيها ، ثم أدنَتْ وجهَها من وجهي ، وهمستْ قائلةً : دونَك شِفاهِي ... هِيَ لك !

وغبنا معًا في عِناقٍ حارّ ، وقُبُلاتٍ مُسْتَعِرَة ...

وأجلستُها بجانبي على المتّكإ ويداها بين يديَّ ، على حين كانت عيناي لاترْوَيَانِ من النظر إلى شفتيها . . وقالت لي : لن أُفارقَكَ ! لن أُفارقك أبدا !

— كيف ؟

— ألا ترْضَى أن أُقيمَ معكَ ؟

— وأُسرَتُكِ ؟

— لايستطيعُ أحدٌ فى العالَمِ أن يحولَ بينى وبينَكَ !

وعقدتْ مابين حاجبيها وقالت فى صرامة :

سأقَرِّرُ مصيرى بنفسى . أنا حُرَّةٌ فى تصرُّفى . لاسلطانَ لأحدٍ علىَّ !

وسمعنا في هذه اللحظةِ دقًّا بالباب فألفيتُها تَفْزَعُ إلى رقبتى تتعلَّق بها …

وهى تهمِسُ فى نبراتٍ مختلجةٍ : لاتفتح . لاتفتح . لا أُريدُ أن أعودَ إليه !

وسمعتُ صوتَ الطاهِى يسألُنى عن طعامِ المَساءِ ، فطلبتُ اليـه أن يرجِعَ

بعد فترة … ثم التفتُّ اليها وقلتُ : ممن تخافينَ ؟

فتحركتْ شفتاها دون أن تنطِقَ بحرف ، وعدتُ أقولُ :

فيمَ الفزعُ ؟ … ممن تخافينَ ؟

فقالت والحيرةُ تجولُ فى مآقِيها : أأستطيعُ أن أُعوِّلَ عليكَ ؟

— كلَّ التعويل …

— أقادِرٌ أنتَ على أن تدفَعَ عني كلَّ أذى ؟ أقادرٌ أنتَ على

حمَايتى ؟ حمايتى منه …

— مَنْ هو ؟ … من ؟

— هو … هو …

— أَبُوكِ ؟

— ليس لى أبٌ !

— إذنْ من يكونُ ؟

فأخفَتْ وجهَها فى صدرى ، وطفِقَتْ تَنْشِجُ قائلةً :

لقد كذَبْتُكَ . كلُّ ما أخبرتُكَ به محضُ اختِلاق … اِغفرْ لى !

— أَوْضِحى كلَّ شىء … تكلَّمِى …

فرفعتْ عينيها إلىّ وقالت : لاتحقدْ علىَّ ... إنى فتاةٌ بائسة ... لا نصيرَ لى فى الدنيا سِواكَ ... ألم تقلْ إنك راغبٌ فى إصلاحِ أمرى ؟

— عولى علىَّ ، وا كشفى لى عن متاعِبكِ وهمومِكِ !

— إذن لن يستطيعَ أن ينالَنى بسوء !

— من هو ؟

— هو الذى يأمُرُنى فأُطيعُ ... هو الذى يُلقِّنني كلَّ كلمةٍ أتفوَّهُ بها . ويرْسُمُ لى كلَّ طريقٍ أسلُكُه ... هو الذى يَفرِضُ علىَّ إتاواتٍ يجبُ أن أؤدِّيها إليه كلَّ يوم ... هو أصلُ بلائى !

— من هو ؟

— هو شيطانٌ لقِيَنى فى طريقِ الحياة ، فحوَّلَنى من فتاةٍ طيبةِ القلبِ طاهرةِ الذَّيل أدرُسُ فى معاهدِ التعليم بنشاطٍ ، إلى حيثُ ترى ... أَهْوِى إلى الدَّرْكِ الأسفلِ !

— ولماذا لا تترُكِينه ؟

— لا أدرى ! ... لا أدرى لماذا لا أستطيعُ تركَه ... ولكننى أؤكدُ لكَ أن كلَّ شىء انتهى الآنَ ... سأستأنِفُ معكَ عهداً جديداً ... إنى أضعُ حياتى كلَّها بين يديكَ ، فأَقِلْنى من عثرَتى ، وانتشِلْنى مما أنا فيه .

— لاتخشَىْ أحداً مادمتِ معى ! ... كونى على ثقةٍ بأننى سأكونُ لكِ نعْمَ الهادى ونعمَ النصير ...

ووجدتُها تُريحُ رأسَها ثانيةً على صدرى وتُرْخِى أجفانَها ، وقد شاعت فى وجهِها طُمأنينةٌ وهُدوء ...

وغمَرَنا الصمتُ والسُّكون ... وأخذ ضوء النهار يَشْحُب ...

وطال صمتُها وهى مُسْبَلَةُ الأجفان . وكان صدرُها يعلو ويَهْبِطُ فى حركةٍ

منتظمةٍ فأحطتُها بذراعي فى رفقٍ وطفقتُ أتطلعُ اليها مجتابيًا سحرَها الخلاب ...
ياللهِ ! ... لم أرَها على هذه الفتنةِ من قبلُ ...

*

استيقظتُ والصبحُ قد بدأ يتنفس ، ودُرتُ بعيني أتفقدُ « ذاتَ الشفاهِ » ... فلم أجدْها ، فناديتُها فلم يجبْنى أحد .. فانطلقتُ أبحثُ عنها فى الدارِ فلم أعثُرْ لها على أثر . فقصدتُ الى حجرةِ مكتبي حيرانَ مضطرباً ، فوقع بصرى على دُرْجِ المكتبِ مفتوحاً . وألفيتُ حلْقةَ المفاتيحِ مُعلَّقةً بقفْلِه ، فأخذ منى العجبُ كلَّ مأخذٍ . إن حلقةَ المفاتيحِ لا تبرحُ جيبى !

وهُرعتُ إلى الدُّرْجِ أبحثُ فيه ، فلم أجد محفظةَ نقودى ! ...
ووقفتُ مبهوتاً ، وقد انتفختْ أوداجى ... وعدتُ الى بحثى فى دِقَّةٍ وتحرٍّ منادياً « ذاتَ الشفاه » ... ولكنَّ كلَّ ذلك كان بلا جدْوَى ! ...

واندفعتُ الى « التليفون » أطلب « قسمَ البغَّالة » وما كاد يُجيبنى حتى أعدْتُ السمَّاعةَ مكانَها فى عُنْفٍ وأنا أردِّد : غلَط ! ... غلط ! ...

وجعلتُ أقطعُ الحجرةَ ذهاباً وجيئة ، وبغتةً وقع نظرى على مُعْجَمِ « أبوت » مُلْقًى على الأرض فى إهمال ، متجمعًا بعضُه على بعضٍ كشيخٍ طحنته السِّنون . وأبصرتُ بقصاصةِ الورق تُطِلُّ من بين صحائفِه فانحنيتُ أجتذبُها ، وما إن طالعتْنى صورةُ « الشفاهِ الغليظة » حتى انهلْتُ عليها دَعْكاً وقذفْتُ بها فى عُرْضِ الحجرة ...
وانثنيتُ على المُعْجمِ فوقعَ فى وَهْمِى أنه يرْمُقُنى فى خُبْث وتهكُّم ، فركلْتُه ركلةً شتَّتتْ من أوراقِه ، وبعثَرتْ من فصوله ... !

القبلة التائهة

قالَ « أبو نصرٍ » أحدُ رُواةِ الأدبِ في عصرِ بني العبَّاسِ :

كنتُ عند « محمَّدِ بنِ يسارٍ اليزيديِّ » أحدِ أمراءِ الجُنْدِ في عهدِ الرشيدِ ، وكان قد أربَى على السبعينَ ، وخلَدَ إلى حياةِ العُزْلةِ في قصرِه المُنيفِ على « دِجلةَ » في ضواحِي « بغدادَ » . وكنتُ أزورُ هذا الأميرَ بينَ حينٍ وحينٍ ، فنقضِي الوقتَ نعرِضُ معاً عصرَ الرشيد ، ونتذوَّقُ أخبارَه في تشوُّقٍ واستمتاع . وكان قد مَضى على وفاةِ الرَّشيدِ عشرُونَ عاماً ونيِّفٌ .

وقصدْتُ إلى الأمير في أصيلِ يومٍ من الأيَّام ، فوجدتُه في الحديقةِ جالساً وَسْطَ الرَّياحينِ على وسائدَ من الدِّيباج . فما إن رآني مقبلاً عليه ، حتى لاحتْ على وجهِه ابتسامةٌ ، وقال : كنتُ أُفكِّر في إرسال من يطلبُكَ الآنَ يا أبا نَصْرٍ ...

— خيْراً أيُّها الأميرُ !

— اجلِسْ ...

فجلستُ على وِسادةٍ ، على مقْرَبَةٍ منه . وكان يُحيطُ بنا نافوراتٌ نُحاسيَّةٌ على شكلِ أُسُودٍ تَقْذِفُ المياهَ من أفواهِها في عَظَمةٍ خلَّابة . وسمعتُه يقولُ وهو يُحدِّق في وَجْهِ أسدٍ من هذهِ الأُسود : بي رغبةٌ في التحدُّث إليكَ في حادثةٍ وقعتْ لي أثناءَ صِبايَ ، يكتنفُها لغزٌ لم أستطعْ حتى اليومِ الاهتداءَ إلى حلِّه ...

وتقلَّبَ الأميرُ على وسائِدِه ، ثم أخرجَ من صَدْرِه عُلْبَةً صغيرة من الخَشَب ، زَكِيَّةَ الرَّائحة ، عليها رُسُومٌ فارسيَّة جميلة . وناولَنى إيَّاها ، فأخذتها وأنا أَتَفَحَّصُها مُعْجَباً بدقيقِ صُنْعِها .

وسمعتُ الأميرَ يقول : لقد عثَرْتُ اليومَ على هذه التحفةِ فى خِزانةٍ لى قديمةٍ ، فأثارتْ فى قلبى ذِكْرى بعيدةً ، ذكرى محبَّبةً بالرغمِ مما فيها من غُموض .

وفتحتُ العُلْبَةَ ، فإذا فيها ياقوتةٌ وزُمُرُّدَةٌ يتوسَّطُها قَلْب من العاج .

فرفعتُ عينَيَّ إلى الأميرِ متسائلاً ... فقال : أياقوتةٌ ، أم زُمُرُّدَة ؟

فقلتُ : لا أفهَمُ شيئاً يا مولاى !

— اِستمعْ لِى ، فسأَرْوِى لكَ قِصَّتَها .

وكان ضوء النهارِ قد بدأ يَنْحَسِرُ عن المكان ، وأخذت الظُّلْمَةُ تتسلَّلُ بِخُطًا جريئة ... واسترخى الأميرُ فى جِلْسَتِه ، وأسبَلَ جَفْنَيْه وقتاً وهو صامتٌ ، فَحَسِبْتُهُ قد أَغْفَى . ولكنه لم يلبَثْ أن تكلَّمَ فى صوتٍ خافتٍ يقول :

كنتُ ذا مَساءٍ جالساً فى مَوْضِعِى هذا ، منذ خمسةٍ وعشرينَ عاماً ، أطلُبُ الوَحْدَةَ والراحةَ بعدَ يومٍ عاصفٍ مزدَحِمٍ بالزُّوَّار . وكان ذلك على أثرِ عودتِى من الثغورِ الغربيَّة بعد انتصارِى الحاسِمِ على جُيوشِ الرُّوم ، فرأيت الخادمَ يتقدَّمُ منى فى خُطًا متردِّدَةٍ . فقلتُ له : ما وراءَكَ يا أبا زُهَيْر ؟

فقال ، وقد خَفَضَ بَصَرَه : شخصٌ يطلُبُ المثولَ بين يديْكَ يا مولاى !

فرميتُه بنظرةٍ نكراءَ ، وقلتُ : ألم أخبرْكَ أنى لن أقابلَ أحدا ؟

— إنها غادةٌ من عِلْيَةِ القوم ، تُلِحُّ فى طلبِ لقائِكَ !

— غادةٌ تُلِحُّ فى طَلَبِ لِقَائى ... ؟

ونكَّسْتُ رأسِى طويلاً ، ثم نظرتُ إلى « أبى زُهَيْر » ، وقلتُ له : أَدْخِلْها ... ولكنِ الويلُ لك إن كانَ فى الأمرِ ما لا يستحقُّ الذِّكْرَ !

وبعـدَ قليلٍ ، ظهرتْ غادةٌ ، أنيقةُ المَلْبَسِ ، تُخْفِي وجهَها خلفَ نِقابِ من الحرير ... تقدمتْ منى ، وانحنتْ ، ثم قالت فى لهجةٍ فصيحة :

السلامُ عليكَ أيُّها الأميرُ !

— وعليكِ السلامُ ... اجلسِى !

وجلستْ على وِسادةٍ بعيدةٍ عنى ، والعِطرُ يفوحُ منها ، فيتخاذلُ عِطرُ البستانِ إزاءَه فى خِزْيٍ . واستطعتُ أن أرى ملامحَها الفتَّانةَ خلفَ النِّقابِ . فنظرتُ إلى « أبى زُهَيرٍ » ، وقلتُ له : دَعْنا وحدَنا الآنَ !

وتركَنا « أبو زهير » ومضى وقتٌ والغادةُ لاتتكلَّمُ ولا ترفعُ نِقابَها .

فقلتُ لها فى صوتٍ رقيق : أما آنَ للبدرِ أن يُسْفِرَ ؟ !

فألقَتْ بالنقابِ جانباً ، فظهر وجهٌ يسطَعُ كالقمرِ فى الليلةِ الظَّلْماءِ . فقلتُ : لِمَ لا تَقْتَرِبِينَ ياحسنائى ؟

— أنا وصيفةُ الأميرةِ ياقوتةَ يامولاىَ . أرسلَتْنى إليكَ فى أمرٍ خاصٍّ .

فقلتُ مردِّداً : الأميرةُ ياقوتةُ الفارسيَّة ؟

— هى نفسُها يامولايَ !

وكانت أخبارُ الأميرةِ على الرَّغمِ من كِتمانِها لِشَخْصِيَّتِها قد ذاعت فى « بَغدادَ » ، ولـكنها ظلَّتْ على الدوامِ محوطةً بالألغازِ والأسرار . وكان النـاسُ يرْوُونَ فى شأنِ جمالِهـا أوْصافاً لايسمَعُها المرءُ إلا فى الأساطير ، ويتحدَّثون فيما تعيشُ فيه من التَّرَفِ البالغِ أحاديثَ لا يقبَلُها العقلُ السليم ، حتى إنها لفَرْطِ جمالها وما يحيطُ بحياتِها من غُموضٍ وسِحْرٍ ، قد أصبحتْ قِبْلَةَ النظر ، ومَسْرَحَ الفِـكَر . بَيْدَ أنها بَقِيَتْ أمْنَعَ من عُقَابِ الجوِّ على مُرِيدِيها ...

فالتفتُّ إلى الوصيفةِ ، وقلتُ لها مبتسِماً :

حقا لقد أحسنَتِ الأميرةُ اختيارَ من يمثِّلها !

فخفضتْ من بصرِها فى خَفَر ... فقلتُ : وبماذا أستطيع خدمةَ الأميرةِ ؟

فصمتَتِ الوصيفةُ قليلا ، ثم قالت : أن تُشَرِّفَها الليلةَ بزيارتِكَ ...

فأرسلتُ بصرى في الفتاة أتفحَّصُها . ثم حوَّلت نظرى عنها وقد انطلقتُ أفكِّر ، وأنا أُقلِّب الأمرَ على شتَّي الوجوه ... ألم أبذلْ من جُهْدٍ ومالٍ - فيما مضى - فى سبيلِ الوُصولِ إلى الأميرةِ ، فرفضتْ لِقائى رَفضًا مُذِلاًّ تحطَّمتْ معه كِبْرِيائى ؟ ... والآن ، ماذا جَدَّ في الأمرِ ، حتى تبعَثَ فى طلبى من تلقاءِ نفسِها ؟ !

سأرفُضُ بِدَوْرِى رفضًا قاطِعًا ، وسأطعُنُ كبرياءَها طعنةً صائبة ... فازددتُ اضطجاعًا فى جِلْسَتى ، وقد أعددتُ كلمةَ رَفْضٍ رائعة . فرأيتُ الوصيفةَ تترك مقعدَها ، وتقترِبُ منى . ثم انحنَتْ فى أدبٍ ، وقالت :

والأميرةُ ترجو منكَ ياموْلايَ أن يكونَ حضورُكَ بلَبُوسِ الجيشِ ..

— ماذا ؟ ... أأوامرُ أتلقَّاها ، علىَّ أن أَحنيَ هامتى لها خاضِعًا ؟ ! ...

وأردتُ أن أردَّ عليها ردًّا حاسمًا ، فسمعتُها تقولُ فى ابتسام :

لاتنسَ الدِّرْعَ والمِغفرَ ياموْلاىَ ، ولا السيفَ ذا المَقْبِضَ العاجِىَّ المُحلَّى بالياقوت ...

وقبل أن تسمَعَ جوابى ، رأيتُها تتراجَعُ مبتعِدةً ، وظُلمةُ الحديقةِ تبتلِعُها !

ولبثتُ ساعةً مشدوهًا ، أُحدِّقُ فى المكانِ الذى اختفتْ فيه ، وأنا لاأتحرَّكُ ، ولا أنبسُ بكلمة . ثم رأيتُنى قد وقفتُ بغتةً ، وناديتُ « أبا زهير » ، فما إن لاحَ شَبَحُه من بعيدٍ ، حتى صرخْتُ :

مائةُ جَلْدَةٍ ، عقابًا لكَ على أن أدْخَلْتَ هذه الدَّعِيَّةَ فى حضْرتى !

— مولايَ !

— لولا حُرْمَةُ شيخوختِكَ ، لأطحْتُ رأسَك من فَوْرِى !

وأخذتُ أرُوحُ وأجيء في الحديقةِ ساعةً ، و « أبو زُهَيْر » واقفٌ ، مطأطئُ الرأسِ ، صاغرٌ ذليل !

وأخيراً دنَوْتُ منه ، وصرختُ في وجهِه قائلا : هيئْ لى لَبُوسَ الجيش على عَجَل ... ولا تَنْسَ السيفَ ذا المَقْبِضَ العاجىَّ المحلَّى بالياقوت !

وخرج « أبو زُهَيْر » مهرولا ، واقتفيْتُ أثرَه إلى الدارِ ، وأنا أتمتمُ : ستَرَى ... سترَى ...

*

سار بى القارِبُ ، يَشُقُّ مَتْنَ دِجلَةَ ، والجوُّ رائق ، رَخِىُّ النَّسَمات . وطالَ بنا السيْر ، إذْ كان قصرُ الأميرةِ فى ضاحيةٍ بعيدة . ومضيتُ أُفكِّرُ في هذه الدعوةِ الجريئة ، وهل أصبتُ في تلبيَتِها أم أخطأْتُ ؟ ...

ووقعَ بصرى على المَقْبِضِ العاجىّ لسيْفى ، وقد التمعتْ يواقيتُه تحتَ أشعَّةِ القنديلِ المعلَّقِ أمامى ، وشعَرْتُ بيدى تتلمَّس موضِعَ المِغْفَرِ من رأسى ، والدِّرْعِ من صدرى ... ثم ابتسمتُ ابتسامةً عريضةً ... أثَمَّةَ موقعةٌ سأخوضُ غمارَها بعدَ حين ؟ !

وبعد وقتٍ لاحَ القصرُ من بعيد ، يتلألأُ نوراً ، ويأخذُ العينَ بهاء !

واقترَبْنا منه ، ووقفْنا القارِبَ ... وما إن قَفَزْتُ منه إلى الأرض ، حتى برَزَتْ لى فتاةٌ يتبَعُها شخصان ، وإذا بها تتقدمُ نحوى ، وتقولُ :

أيسمحُ مولاىَ الأميرُ أن أرافِقَه ، لأدُلَّه على الطريق ؟

وعرفتُ أنها الوصيفةُ ، فوقفتُ برهةً أُطيلُ النظر فيها وفى تابِعَيْها ، وكانا خَصِيَّيْن فى أبْهى حُلَّةٍ وأغلاها . ثم قلتُ لها مبتسماً :

لم أكنْ أسمحُ لسواكِ ياحسنائى أن يأخذَ مكانَ القيادةِ منِّى ... أتظنِّين أن الطريقَ يستَعْصِى علىَّ ؟ !

فضحكت ضحكة صافية ، وقالت :

كلُّ امرئ يُحسِنُ الضربَ فى ميدانِه يامولاىَ ... وهذا الميدانُ ...

— أليسَ ميدانى ؟!

وطرقتْ سمعى في هـذه اللحظةِ أصواتُ غناءٍ رقيقةٌ مصحوبةٌ بعزفِ عودٍ وناى ، صادرةٌ من ناحيةِ القصر ... وهبّتْ علىّ أنفاسُ الزَّهْرِ الفوّاح ... وكانت الوصيفةُ تسيرُ أمامى ، وبيدِها مصباحٌ رائقُ النور . وسِرْتُ خلفَها ، وأخذنا نصعَدُ مُرْتقًى سهلا ليّنا ، مكسوًّا بحشائشَ نَضْرةٍ ، فكأنّنى أخطو على بساطٍ وَثير . ورُحتُ أعابِثُ أفكارى برهةً وتعابثُنى ، حتى وصلْنا إلى القصرِ ، فاخترقْنا بستانا عظيما ، ومررنا بنافوراتٍ وجداولَ ، وعَبَرنا قناطرَ تهدَّلُ عليها الأغصانُ تهـدُّلَ الشعورِ على مناكبِ الحِسانِ ... وسِرنا بين الخمائلِ الرائعةِ تتطايرُ فيها أنفاسُ الحبِّ دافئةً ريّانةً . كلُّ هـذا وأصواتُ الغنـاءِ الرقيقةُ بعُودِها ونايِها تصاحِبُنا فى رِفقٍ وسِحر . وأحسسْتُ شيئا من الفُتُورِ اللّذيذِ يتسلّلُ لَيِّنًا إلى قلبى ... ورأيتنى أُهمهم :

أحقًّا أنَّ هذا الميدانَ ليس ميدانى ؟!

وانتهى البُستانُ ، ودخلنا القصرَ ، فإذا بنا نجُوزُ أبهاءً فسيحةً ، رائعةَ المنظرِ بألوانِ حِيطانِها وزخارفِها وثُرَيّاتِها وأرائكِها وبُسُطِها ... شىءٌ لم أرَهُ حتى فى قصورِ الخلافةِ ! ... وكنا كلَّما سِرنا ، ازدادَ الغِناءُ وُضوحًا ، وازداد قلبى رِقّةً ورهَافة ...

وأدّى بنا المَطافُ إلى حُجْرةٍ تغمُرها الأنوارُ الفيّاضة ، رأيتُها تزْخَرُ بالقِيانِ الباهراتِ الحُسن ، تتوسّطهُنَّ سيدةٌ متربّعةٌ على شِبْهِ عَرْش . ماوقع بصرى عليها حتى أحسستُ كأنّ أنفاسى قد احتبسَتْ ، ووجـدتُ عينىَّ قد تعلّقتا بها فى شَرَهٍ غريب ... وسمعتُها تقولُ فى رِقّةٍ وعُذوبة :

أهلاً بالأميرِ مُحمَّدِ بنِ يسارٍ ، قاهرِ الرُّومِ ، وسيِّدِ الثغورِ الغربيَّة ، وسيفِ الله المُسلَّطِ على رِقابِ الكُفَّار !

فهمهمتُ قائلاً ، وقد انحنيتُ أمامَها :

السلامُ على الأميرةِ ياقوتةَ ، العظيمةِ بجمالِها وبِعَريقِ مَنْبِتِها !

— وعليكَ السلامُ أيُّها الأمير ... تقدَّمْ ... إن مكانَكَ لَينتظِرُكَ !

وتقدمتُ إلى وِسادةٍ بجوارِها ، فجلستُ عليها وأنا أقولُ :

أتُرَيْنَنى قد تأخَّرْتُ فى الحضور ؟

— كلا ...

— إن الأميرةَ قد اختارتْ لقصرِها مكاناً بعيداً عن بَغْدَادَ ...

— إنى أكرَهُ المُدُنَ ، وأُحبُّ العُزْلَةَ فى مكانٍ هادِئٍ ، طَليقِ الهواء !

— ألا تَقْدَمِينَ بَغْدَادَ ؟

— أَقْدَمُها نادِراً ، فى الفينةِ بعد الفينة ...

ثم صمتَتْ قليلا ، وهى ترسلُ بَصَرَها فىّ ... ثم ابتسمتْ قائلةً :

لقد كنتُ فيها صباحَ اليومِ ...

— صباحَ اليوم !

— وشاهدتُ موكِبَ الفاتحِ العظيم ، وهو يجتازُ بغدادَ على فرَسِهِ الغرَّاء ، محوطًا بفوارِسِه الأشِدَّاء ، تُظَلِّله الراياتُ ، وتلتمِعُ حولَه الرِّماح ...

وألقتْ ببصرِها على سَيْفِي ، فقالتْ صائحةً :

ياله من دُرَّةٍ نَفيسَة ... ذلك الجبارُ ذو المَقْبِض العاجىِّ المرَصَّع بالياقوت !

ومدَّتْ يَدَها إليه ، فنزعَتْه منى فى رِفْق ، وأخذت تُقَلِّبه بين يديْها مشغوفة .

ثم مضَتْ تستَلُّه من غِمْدِه ، وهى تحدِّقُ فيه بعينٍ لامعة ، وتقول : كم رأساً أطاحَ ؟

— عَدَداً لا يُحصَى أيَّتها الأميرة !

— ولكنه أملسُ كخدِّ العذراء ... يا للهِ ... إن الجمالَ ليختلطُ فيه مع القسوَة، فلا تدرِى أرسولُ الموت هو حقاً أم رسولُ الغرام!

وأدنَتْهُ من فمِها، وقبلَتْ حَدَّه. وأنا أنظُرُ إليها كالمسحور، ثم هَبَّتْ واقفةً، وقالتْ: هَبْنِي إيَّاه أيُّها الأمير!

— سيدتى ...

— أترفض؟

فابتسمتُ قائلا: إن القائدَ بلا سَيْف، كالغانيَةِ بلا لَحْظٍ!

— أو تحسَبُ نفسَك فى مَيْدَانِ حَرْب!

فأجبْتُ وأنا محتفِظٌ بابتسامتى: إن الميادينَ واحدة، وإنِ اختلفت الأسماء...!

فلاطفتْ خَدِّى، وقالتْ:

أتريدُ أن تُعْلِنَ علينا الحربَ، ونحن كما تَرَى قومٌ عُزْل؟

— عفواً أيتُها الأميرة!

فضحكتْ ضِحْكَةً عابثَة، وقالت: سأنالُه منكَ، رضيتَ أم لَمْ تَرْضَ!

وذهبتْ به إلى أَحَدِ أركانِ الغرفة، فعلَّقَتْه على جدارِه بعناية. ثم عادَتْ إلىَّ، ووقفتْ قُبَالَتِى. وقالتْ وثغرُها مُفْتَرٌّ وعيناها مُسْبَلَتان:

سنعوِّضُكَ خَيْراً منه أيُّها الأمير!

وقبل أن تَفْسَحَ لى المجالَ للكلام، صاحتْ: علينا بالطَّعام!

وأقبلَ سِرْبٌ من الوصيفاتِ الحِسَانِ، يَرْفُلْن فى أثوابِهِنَّ الفَخْمة، بعضُهُنَّ يَحْمِلْنَ الأباريقَ والطُّسُوتَ يَفُوحُ منها أَرَجُ الوَرْد، والبعضُ يُهَيِّئْنَ الموائدَ، ويأْتِينَ بِصِحَافِ الطّعام الشَّهِىِّ المختلفِ الألوان...

وخَلَعْتُ مِغْفَرِى ودِرْعِى، ثم غَسَلْتُ بماءِ الورد يدِى، وأقبلتُ على المائدة، وبدأتُ آكُلُ، وقد عادَ القِيانُ إلى غنائِهِنَّ الساحر. ثم جاءوا لنا بِقِنِّينات

الخمرِ الفاخرِ ، فانطلقتُ أشربُ منها ، وعيناي لا تفارقانِ وجهَ الأميرة .

وكانت الأميرةُ فى الحين بعد الحينِ تستوضحُنى مغامراتى الحربيةَ ، فأرْويها لها فى دِقةٍ وتنميق يُثيران اهتمامَها وشغفَها ، فتقْبِلُ علىَّ تطلبُ المزيدَ .

... ... وانتهى الطعامُ ، وأنا فى شِبْهِ حُلمٍ مما أرى وأسمعُ .

وهمسَت الأميرةُ فى أُذُنى : أتُراكَ راضياً عن هذه الزيارةِ ؟

فترنَّحَ رأسى قليلاً ، وهمهمتُ :

إنى لأحسبُ نفسى قد اسْتُشْهِدتُ فى حربِ الرُّوم . وما هـذا المكانُ الذى أنا فيه الآنَ إلَّا الجنةَ التى وُعِدَ بها الشُّهداءُ المتَّقُون ! ...

فابتسمت الأميرةُ ابتسامةً رحيبة .

وبدأت الوصيفاتُ يَرفَعْنَ الموائدَ ، ثم أخـذتِ القِيَانُ يَتسلَّلْنَ خارجاتٍ . ولم تَنْقَضِ إلا برهةٌ وَجيزةٌ ، حتى رأيتُنى وإياها منفردَيْن فى القاعة ، وقد اضطجعْنا على الوسائدِ اللَّيِّنة ... وسمعتُها تقولُ فى صوتِ الحالِمِ :

لم تبقَ إلا مَوقِعةُ الخندقِ ... لم تحدِّثنى عنها !

— موقعةُ الخندَق ؟ ... وهل جاءَتْك أخبارُها ؟

— حملَ الرُّوَاةُ نُتفاً منها إلينا ...

— رَجْمٌ بالغيبِ ماسمِعْتِ أيتها الأميرة !

— كيف ؟

— إن موقعةَ الخندقِ لم يَشْهَدْها سوای وعشرينَ فارسًا من الأعداء ، حصَدَهم سيفى حَصْداً ، فلم ينجُ منهم أحد ... فكيف يستطيعُ غيرى أن يعلَمَ تفاصيلَها ؟

وأحسستُ جسمى يتقدُ كشُعْلةٍ ملتهبةٍ من جَـرَّاءِ ماشرِبْته من الخمر . فقمتُ ، وجعلتُ أقصُّ على الأميرة فى حماسٍ مُثِير موقعةَ الخنـدَق ، وأُمثِّل

حوادثها تمثيلا دقيقا ، والأميرةُ مُصوِّبةٌ بصرها إلىَّ ، لا تَطْرِفُ لها عين ، وقد دَعَمتْ خدَّها بكفِّها ، وراحت تسمعُ فى تَشَوُّف ...

وما كدتُ أنتهى من سَرْدِ القصة ، حتى ألقيتُ بنفسى على وِسادةِ الأميرةِ بالقُربِ من قدمْيها ... وشعرْتُ بيديْها تأخذانِ برأسى ، وتُوسِّدُه حِجْرَها ، وانطلقتْ تمسحُ وجهى ... ثم تلاقتْ نظراتُنا طويلا ، وسمعتُها تقولُ :

ما أرْوَعَ منظرَ البطلِ ساعةَ الهزيمة !

فرفعتُ رأسى قليلاً ، وقلتُ : أيَّةُ هزيمة ؟

فقالت فى صوتٍ لَيِّنِ المكاسِر :

إن من الهزائم ما يَعُدُّه البعضُ انتصاراً أيها الأمير !

ورأيتنى ألُفُّ ذِراعى حولَها ، وأجْذِبُها نحوِى ، وقد أدنَيْتُ من وجهِها وجهى . ووجدتُ شفتيَّ ترتعشان ، وهما تتأهَّبانِ لِاغْتصابِ القبلة العظيمة ...

ومكث الوجهان برهةً متقابلَيْن ، لا يفصلُ كلاًّ منهما عن الآخرِ إلا أنفاسٌ حارَّةٌ تتراسَل بها الشِّفاهُ !

وفى لحظةٍ انفتلَتِ الأميرةُ عنى ، كالسمكةِ تَنْمَلِصُ من يدِ الصَّيَّادِ ...

ورأيتها تهمهم ، وقد برَقَتْ عيناها بلمعةٍ قاسية ، فيها تحدٍّ وفيها كِبْرِياء :

لن تنالَها !

ووقفتُ مأخوذاً أُحدِّقُ فيها ، ومرَّ برأسى خاطِرُ محاولتى الأولى ، وما أصابنى فيها من إخْفاقٍ مُذلّ . فعقدتُ ساعِدَيّ على صدرى ، ورمقْتُ الأميرة بنظرةٍ تتجلَّى فيها السيادةُ ، وقلتُ : سأنالُ القبلةَ ، رضِيتِ ، أم لم ترْضَىْ !

ولَحَظْتُ أنها تَهُمُّ باستدعاءِ أعوانِها ، فقفزتُ إلى سيفى ، فانتزعْتُه من الحائطِ ، ثم تقدمتُ منها ، وأنا مُسْتوْثِقٌ من نفسى ، وقلتُ :

جَرِّبى ، واسْتَدْعِى من تشائينَ ... وانظُرِى كيف يكونُ مصيرُهم !

فظلّتْ صامتةً برهةً ، تختبرُني بنظرِها الثاقبِ . ثم لاحَتْ على وجهها ابتسامةٌ عابثَةٌ . وقالت : كلاّ أيها الأمير ... كنْ مطمئِنًا ... لا أرغبُ فى دَفعِكَ إلى معْرَكةِ خنْدقٍ أخرى ، قد لا يُوَاتيكَ النجاحُ فيها !

فقهقهتُ طويلاً ، وأنا أتأمّلُ حَدَّ سيفِي اللاَّمِع ...

وسمعتُها تقولُ : وإذا طلبتُ منك مغادَرَةَ القصْر ؟

— قبل أن أنالَ القبلةَ ؟ ... هيهَاتَ !

— من تظنُّنِي أيها الأمير ؟ ... أَمَحْظيةٌ من مَحَاظِيك ؟ !

— وأنتِ أيَّتُها الأميرة ... من تَظُنِّينَنى ؟ أَطُفيلِيٌّ مُهرِّجٌ ، يقنَعُ بأَكْلةٍ فاخرة ثمنًا لما يَرْوِيهِ لكِ من القَصَص ، وما يُنْشِدهُ من الشِّعْر ؟ !

وصَمتْنا زمنًا ، وعيونُنا متلاقيةٌ لا تَطْرِف . ثم رأيتُ الأميرةَ تبتسم ، وقالتْ في تَمَهُّلٍ ، وقد حوَّلتْ نظرَها جانبًا : يالَنا من أحْمَقَيْن !

— هذا ما كنتُ على وَشْكِ أن أقولَه !

وانطلقْنا دَفعةً واحدةً نضحَكُ ، وقد ارتفَعَ صوتُنا في شِبْهِ صِيَاح . فجاءَتْ وصيفةٌ مهرولَة ، وقالتْ : أتطلبُ الأميرةُ شيئًا ؟

— أجلْ يا بستانُ ... أَطْفِئي الشموعَ ، وأسْدِلِي الأسْتارَ !

فقلتُ على الفَوْر : ما معنَى هذا ؟

فأقبلتْ عليَّ فى دَلال ، وقالتْ وعيناها تَسْتَعطِفَانِي :

ألا يَدعُ لِيَ القائدُ المنتصرُ أن أطلبَ منه مَطْلبًا واحدا ؟

— أوْضِحِى يا سيدتى !

فدَنَتْ منى ، وهمستْ قائلةً : لن تنالَ القبلةَ إلاَّ فى الظَّلام !

— ولـكن ... ...

ولمحتُ عينَيْها قد اتَّقدَتَا فجأةً كجمرةِ نار ، وقالتْ فى صوتٍ متهدِّج :

هذا مَطْلَبي ... فإن رفَضْتَه ، فالحربُ بيننا !

وسكتُّ حِيناً ، ثم ما لبثتُ أن تضاحكتُ ، وأنا أُداعِبُ حَمائِلَ سيفي ، وقلت :

مشيئتُكِ نافذةٌ أيتها الأميرة !

وإذا بي أُمْسِكُ يَدَها على الفور ، وقلتُ وقد غارَتْ ضِحْكتي وتَشَتَّتَتْ :

أمَّا إن حَدَّثَتْكِ نفسُكِ بِسُوء ...

— لستُ بَلْهاءَ أيها الأمير ...

وكانتْ « بستانُ » الوصيفةُ قد أوشكَتْ أن تُتِمَّ عملَها في إطفاءِ الشُّموع وإسدالِ السُّتُور ... فلم تبقَ إلا شمعةٌ واحدةٌ مُضاءَة ، فتركَتْها وخرجَتْ .

واتخذَتِ الحجرةُ أمامَ عيني منظراً مُوحِشاً ، فكأنَّني انتقَلْتُ في لحظةٍ بقوةٍ غيرِ منظورةٍ إلى مَغارَةٍ من مغاورِ السَّحرَةِ . وكَرِهْتُ مَنظرَ الظِّلالِ المتراقصَةِ على ضوءِ الشمعةِ الفاترِ ، ولكنني لم أعبأ به ، وقلتُ : ألا تنتهِينَ من هذه المَهْزَلَة ... ؟

فقالتْ في طَراوَةٍ ساحرة : لا تكن عَجُولاً أيها الأمير !

وأطفأَت الشمعةَ ، فلم أعُدْ أرَى شيئاً ، ولكني كُنْتُ أُحِسُّ وجودَ الأميرةِ من صوتِ تَنَفُّسِها ، وحركةِ يَدَيْها ...

وأخيراً شاهدتُ أمراً عجباً ... ثلاثةَ نجوم صغيرة ، كأنها الوَشْم ، تتلألأ على صدرِها العارِي . وسمعتُها تقول وهي ممسكةٌ بيدي :

كلُّ من كان من نَسْلِ الأكاسرة ، يحمِلُ على صدرِه هذه النجومَ الثلاثةَ !

وكنتُ لا أرى من الأميرةِ إلا هذه النجومَ اللامعةَ تتلألأُ ، فتنيرُ حولَها هالةً من الصَّدْر في حجم كَفِّ الطفل . أما غيرُ ذلكَ فظلامٌ في ظلام !

وأمسكتُ بمنْكِبَيها ، ولبثتُ أُحدِّق في تلك النجومِ الثلاثة متفحِّصاً إيَّاها في دِقَّة . ثم قلتُ : يا لَهُ من وَشْمٍ جميل ، يَزِيدُه حُسْناً هذا الصدرُ البَضُّ الجميل !

وأدنيتُ وجهي منه ، فأبعدَتْني في لُطف ، وقد غطَّتْ صدرَها ، وهي تقولُ :

أتظنُّ أنه وَشمٌ كسائرِ الوُشوم ، من صُنْع البَشَر ؟ !

— إذاً ماهو ؟

— إن الطفلَ ليولَدُ وهو يحمِلُ على صدرِه شارَةَ النبل هذه أيها الأمير !

— عجيبٌ ... وهل تَضُمُّ فارسُ كثيراً ممن يحملونَ هذه الشارَةَ ؟

— لا أعرِفُ إلا شخصينْ يحمِلَانِ هذا الوَشْمَ ...

— أنتِ ومن ؟ !

— أُختى !

— ألكِ أُخت ؟

— اِسمُها زُمُرُّدَة ...

— لم نسمعْ بها ...

فصمتَتْ قليلاً ، ثم قالت : إنها أُختٌ غيرُ شرعيَّة ، أيها الأمير !

— أُختٌ غيرُ شرعية ... وأين هى ؟

— فى القصرِ !

— ولِمَ لَمْ تظهر ؟

— هذه رَغْبتُها ...

وجذَبتْنى من يدى ، وأجلَستْنى على الوِسادة ، وقالت فى نُعُومة :
ألكَ فى كأسٍ من الخمرِ ؟ ! ...

*

قال الرَّاوى :

وصمَتَ الأميرُ « محمَّدُ بنُ يسَارٍ اليَزِيديُّ » وازداد اضطجاعًا بين وسائدِه ،
والأُسودُ النحاسيَّةُ مابرِحتْ تقذِفُ بمياهِها ، فتتوهَّجُ تحتَ ضَوْءِ القمرِ ،
كأنها السيوفُ المشهورَة !

وطال صمتُه ، فقلتُ متشوّقاً : ثم ماذا أيها الأمير ... ؟

فلاحت على وجهِه ابتسامةٌ هادئةٌ ، ثم قال :

أليست هذه نهايةً صالحةً ، تنقضى عندها الحادثةُ يا أبا نَصرٍ ؟ ...

— والقبلةُ أيها الأمير ؟

فتمطّى الأميرُ ، وأرخى جَفْنيه ، وهو يقولُ فى لهجةِ الحالِم :

يالها من ليـلةٍ رائعة ، على الرَّغْمِ من حُلوكَتِها ، واكتنافِها بالأسرار ، لم أقضِ فى حياتى أطيبَ ولا أبهجَ منها ... ولـكن ...

— ولـكن ماذا يامولاى ؟

— أياقوتةٌ أم زُمُرُّدَة ؟ !

— بربِّكَ زِدْنى إيضاحًا أيها الأمير !

— اِستمعْ لى ياأبانَصْر ، ثم أَسْعِفْنى برأيكَ فى اكتناهِ هذا اللُّغزِ العجيب ...

وعاد الأميرُ « مُحَمَّدُ بنُ يَسَارٍ اليزيديُّ » إلى جِلستِه **الأولى** ، ووَصَلَ ماانقطعَ من حديثِه **الأوَّل** ، وهو يداعبُ لِحيتَه ... قال :

وأخيراً أخذَتنى الأميرةُ من يدِى فى الظلام ، وصدرُها العارى البَضُّ تتلألأُ فيـه الأنجمُ الثلاثةُ ، ودنَتْ من الشَّمْعة فأشعلتْها . وما كدتُ أتبيَّنُ وجهَها على الضوءِ الناصِلِ المرتعِش ، حتى وثَبْتُ كأنَّما لدَغَتْنى أفْعَى ، وصرختُ :

من أنتِ ؟ ... من تـكونينَ ؟

فابتسمتْ فى خُبْثٍ زادَها بشاعةً إلى بشاعتِها ، وقالت : خادمتُكَ زُمُرُّدَة !

— أختُ الأميرة ؟

— نعمْ أيها الأمير !

— ولأىُّ شيطانٍ جاء بكِ الساعةَ ؟ ...

— أنا معكَ من أولِ الليل ، أخذتُ مكانَ الأميرةِ بقُرْبِك ...

فقلتُ لها وأنا أرتَعِشُ : أتزعُمينَ أيتها الشَّقيَّةُ أنكِ كنتِ جليستي في الظلام طولَ الوَقْت ؟ ... خسِئتِ ! ... كَذِبٌ وبُهْتَانٌ ماتدَّعِين !

وهجمتُ عليها ، لأُمسِكَ بها ، فظهرَتْ الأميرة « ياقوتَة » على الأثر ، وسمعتها تقول : أهكذا تعامِلُ أُختي أيها الأمير ؟

ولجأتْ « زُمُرُّدَة » إلى أختِها ، ووقفتْ بجوارِها ، محتمية بها ... ياالله !... كان قوامُهما واحداً ، وصوتُهما متماثلاً ، وإشاراتُهما متشابِهَةً ... وهذه الأنجمُ التي تزِينُ صدرَيهما ... !

كَأَنَّهما تَوْأَمان ، إلا فى السَّحْنَةِ ، فالأميرةُ تترقرق جمالاً وعُذُوبة ، على حينِ تبدو الأُخْرَى فى دمَامَةٍ وبَشَاعة !

وجعلتُ أُنَقِّلُ عينيَّ بين « ياقوتَة » و « زُمُرُّدَة » وقتاً ، ثم صرخْتُ : كلاَّ ، كلاَّ ... كَذِبٌ وبُهْتانٌ !

فابتسَمتِ الأميرةُ ابتسامةً وَضَّاحةً ، وقالتْ : هو الواقعُ أيها الأمير !

وتلمَّستُ سيفي فلم أجدْه ، وفَطَنَت الأميرةُ إلى ما يجولُ فى خاطِرِى ، فقالت وهي ما زالت محتفظةً بابتسامتِها : لقد رضِيتَ أن تَهَبَني إياه !

وكانت الشموعُ كلُّها قد أُشعِلَتْ ، والأستارُ بأكملِها قد رُفِعَتْ ، ووجدتُ في لَمْحِ البَصَرِ عِشْرينَ عَبْداً من أَشِدَّاءِ العَبيدِ مُدَجَّجينَ بالسِّلاح ، قد أخذُوا يطَوِّقونَني ...

وقالت الأميرةُ : لن تتكرَّرَ موقِعَةُ الخَنْدَقِ فى قَصْرِى أيها الأمير !

ثم أشارت إلى العَبيدِ ، وقالتْ :

إنهم حُرَّاسُك حتى تصلَ إلى السفينةِ في أمانٍ ... طابَ ليلُكَ أيها الأمير !

ولبثتُ حيناً أرقُبها ، وهي تسيرُ ، حتى اختفتْ عن ناظِرَيَّ ، وأنا فى ذهول كمن فقَدَ عقْلَه ... ورأيتني أسيرُ ، والعبيدُ أمامي وخَلْفِي ، حتى وَصَلْتُ إلى السفينة ...

... وما إن عُدْت إلى دارِى ، حتى قابَلَنِي خادمى « أبو زُهَيْر » وقدَّمَ لى هذه العُلْبَةَ التى تراها بين يدَيْكَ ، فإذا هى كما هى الآن ... رأيتُ فيها ياقوتةً وَزُمُرُّدَةً يتوسَّطُهما قَلْبٌ من العاجِ . فالتفتُّ إلى الخادِمِ متسائِلا ، فقال :

إنها هَدِيَّةٌ مُقَدَّمَةٌ للأمير ...

— مِمَّنْ ؟

فاختلَجَ صوتُ الرجل ، وقال :

أتتْ بها الغادةُ التى حَضَرَتْ لِلِقَاءِ الأميرِ قبلَ العَشاء ... !

فما كاد يُتِمُّ جملتَه ، حتى ألفيتُ نفسِى قابضاً على رَقَبَتِه ، أُحاولُ أن أَخْنُقَه !

*

ومَسَحَ الأميرُ « مُحَمَّدُ بنُ يَسَارٍ اليَزِيديُّ » وجهَه بمنديلِه المُعَطَّرِ ، وهمهم قائلاً :

حتى اليومِ لم أهتدِ إلى حَلِّ هـذا اللُّغْزِ يا أبا نَصْر... مَعَ مَنْ قَضَيْتُ هَزِيعَ ليلَتِي ؟

فابتسمتُ وأجبتُه قائلا : عَلامَ هذه الحيرةُ يا مولاى ؟

— كيف يا أبا نَصْر ... ؟

— أليست العِبْرَةُ بالمُتْعَةِ أيها الأمير ؟ وقد قالَتْ إنها كانَتْ أروعَ ليلةٍ قضَيْتَها فى حياتِكَ ...!

— هذا حَقٌّ ، ولـكن أيستوِى الحُسْنُ والبَشاعَةُ فى الخَيالِ إلى هذا الحَدّ يا أبا نَصْرٍ ؟

فابتسمتُ وابتسم الأميرُ ...

ثم صاحَ قائلاً : الطَّعامَ ياغُلامُ ! ...

ملاريا الحب

حمدتُ اللهَ على أنى أنهيتُ عملى مبكراً في عيادتى ، فقد كانت الساعةُ السادسةَ مساءً حين ودّعتُ آخرَ من قدموا عليَّ من المرضى . وقلتُ لـ « حسن » المُمرّضِ وقد خلعتُ معطفى الأبيضَ و تركته له :

حسبُنا من جاءَنا اليومَ ... انتهتْ عيادةُ الليلةِ ... أُريدُ أن أخلوَ بنفسى حيناً حتى أستعدَّ لحفلةِ نادى الأطبّاء .

وقصدْتُ إلى الصُّنبُور ، وجعلتُ أغسِلُ يديَّ ، وسمعتُ « حسناً » يقول : موعدُ الحفلةِ التاسعةُ ياسيدى .

— لِي مراجعةُ المحاضرةِ التى أعددتُها لأُلقيَها ضِمْنَ محاضراتِ الليلة .. وأحِبُّ أن أمضِيَ بسيّارتى متنزّهاً بعضَ الوقت ... إنها على بابِ العِمارةِ فى الموضعِ الذى تركتُها فيه ... أليس كذلك ؟

— لقد أُوصيتُ بها حارسَ السيارات .

— خيراً فعلتَ .

وكنتُ قد فرَغتُ من غَسلِ يديّ ، فمضيْتُ إلى حجرةِ عملى ، وجلستُ إلى مكتبى ، وبسطتُ أمامى أوراقَ المحاضرةِ ، وشرَعتُ أُطالِعُ وأُراجِعُ ... وما كادتِ الساعةُ تقتربُ من السابعةِ ، حتى كنتُ خارجاً من بابِ العِيادةِ

وقد حَمَلْتُ مِحفظَتى الصغيرةَ ، محتويةً المحاضرةَ . وكنتُ جِدَّ مسرورٍ من نفسى ، إذ استطعتُ أن أُجمِلَ فى هـذه المحاضرةِ زُبْدَةً وافيةً لأحدَثِ الآراءِ فى مكافحةِ « الملاريا » فقد كانت حفلةُ الليلةِ خاصَّةً بها ...

مَرَقْتُ من بابِ العمارة ، واتجهتُ إلى السيَّارة فلمحتُها قابعةً فى مكانِها الذى تركتُها فيه . وكانت من السياراتِ الصغيرةِ ذاتِ المقعدَيْن ...

صعِدتُ فيها على عجـل ، وسَرعانَ ما أدرتُ مفتاحَها ، فانطلقتْ تَطْوِى الطريق ... وكانت حفلةُ الليـلةِ تستغرقُ تفـكيرى كلَّه : ماذا هو مقـدَّرٌ لمحاضرتى ؟ كيف يكونُ وَقْعُها على الأسماع ؟ ... وكنتُ قد أبقيْتُ مِعْطفِى الأسودَ على المقعدِ الآخرِ من السَّيارة ، فلمحَتْه عينى فى مكانِه . واجتزْتُ شارعَ « إبراهيم باشا » وما إن أشرفتُ على شارعِ « الملـكةِ نازلى » حتى أيقظتْنى من أحلامى حركةٌ صادرةٌ من ناحيةِ المِعْطف . فالتفتُّ التفاتةً عَجْلَى فإذا المِعْطفُ على حالِه . ولـكنى ما لبثْتُ أن سمعتُ حركةً أُخْرى أشدَّ وَقْعا ، فوجَدْتُنى أُخفِّفُ من سُرعةِ السيَّارة وأُحـدِّقُ بجوارى مستطلِعاً فإذا بالمِعْطَفِ يتحرَّكُ ، ففَزِعْتُ وهاجمتْنى الظُّنون ، فوقفتُ السيارةَ مهتاجَ النَّفْس ، وأضأتُ المصباحَ على الأَثَر ، وظهرتْ فى الحال يدَانِ من المِعْطف بساعِدَين بيضاوَيْن ، فتحفزْتُ فى حَذَر وقد توجسْتُ شرًّا ، ولم أكَدْ أفتحُ فمِى متسائلا ، والذهولُ يملـكُنى ، حتى طالَعَنى وجهُ حسناءَ . وإذْ بى أسمعُها تقولُ :

إلى أين تريدُ أن تذهبَ بى ياسيدى ؟

فبادرتُها بقولى ، وعينايَ محملِقتانِ : من أنتِ ؟ وماذا جاء بكِ إلى السيَّارة ؟

ووجدتُ الفتاةَ تستوِى فى جِلْسَتِها ، وتُنَحِّى عنها جانبًا من المِعْطَفِ الذى كان يُخفيها ، وقالت : معذرةً إذ اتخـذتُ مِعْطَفَكَ لى غِطاءً بعضَ الوقتِ ... أردتُ أن أتَّقِيَ به بوادِرَ البرد !

وتبادَرَ إلى ذِهْني أنها حِيلةٌ تبغِي بها إحدى الغوانِي معابَثتي ، فقلتُ في شيء من الخُشُونة :

ما شأنُكِ ؟ تكلَّمي ... وقتي أثمَنُ من أن أُضيعَه في مثل هذه المهازِل !

فرمتْني بنظرةٍ يَتجلَّى فيها أسفٌ وعِتاب ، وراحتْ تُصْلِحُ من هِندامها ، وتصفِّف شَعرَها . واستبان لى أنَّ وسامتَها يكسوها ظلٌّ من النُّحولِ والامْتقاع ، وأنها لم تُعْنَ بزينتِها ولكنها مع ذلك ذاتُ فتنةٍ ظاهرة . وقد استرعى انتباهي على الفورِ لونُ شَعرِها ، إذْ كانَ متميِّزاً بحُمْرَته القانية ، مسترسلاً على كتِفَيْها متموِّجاً يَبْهرُ النَّظَر ... وسمعتُها تهمهم : إنه لاتِّفاقٌ غريبٌ ذلك الذي جعلني أدخلُ سيارتَك . ثِقْ أني لم أتعمدْ ذلك . كانت أولَ سيارةٍ واجَهتْني فدخلتُها . لم يكنْ من ذلك بُدٌّ ... وأنتَ الآن بين أمرَيْن : إما أن تسمحَ لى بالنزول ، وإما أن تُبلغَنِي داري . ولك بِملْءِ حرِّيتِك أن تختارَ أحدَ الأمرين ...

وكانت تتكلَّمُ في أدب ظاهر واحتشامٍ ، بلهجةٍ تنطوي على أنفَةٍ واعتدادٍ بالنفس ... وأزاحتِ المِعْطفَ كلَّه عنها ، فإذا هي في لَبُوس المنزِلِ : رِداءٌ حَرِيريٌ سابغٌ سماويُّ اللون ، رَشيقٌ على الرَّغْمِ من سذاجته . ولاحظتُ أنها عاطِلٌ لا تتحلَّى بشيء .

وقد فَطَنَتْ إلى دهشتي لما هي عليه من زِيٍّ ، فقالت وعلى فمِها ابتسامةٌ مهمَلة :

حتى الحذاء لم ألبسْه كما ترى ... أُنْظُرْ ... خرجتُ بخُفِّ المنزل !

وحرَّكتْ قدمَيْها لِتُرِيَنِي الخفَّ . ثم واجهتْنِي بقولِها وهي تُعالِجُ فتحَ بابِ السيَّارة : سأترُكُكَ ياسيدى ... شكراً لكَ على أيَّةِ حال !

وكانت عيناها سوداوَيْن عميقتَيْ التأثير تزخَران بعواطفَ غامضةٍ على الرغم مما يلُوح عليهما من إعياء وجَهْد . واستهوانِي صوتُها الموسيقيُّ ذو الرِّعْشَةِ المحبَّبَةِ والغُنَّةِ الأخَّاذَة ، ذلك الصوتُ الهادِئُ الطبيعيُّ الذي ينسابُ إلى أعماقِ النفسِ

فيثيرُ فيها شتى الأحاسيس .

وجعلتْ تبحثُ عبثًا عن مَقْبِضِ الباب ، فقلت لها :

ليس للسيارةِ إلَّا مدخَل واحد ، هو الذى يَلِينى ...

— إذاً أرجُو أن تفسَحَ لى .

ونظرتُ إليها مَلِيًا أتأمَّلُها ، ورأسى تَطُوفُ به أفكارٌ متضاربة . ثم وجدتُنى أُطفِئُ المِصْباحَ ، وأُديرُ مفتاحَ السيارةِ على مَهَل ، فخطتْ بنا خُطُواتِها الهيِّنَة .

وسمعتُ الفتاةَ تقول : لماذا لم تَدَعْنِي أَبْرَحُ السيَّارةَ ؟

— لقد اخترتُ الأمرَ الآخرَ ... سأُبلِغُكِ دارَكِ ... أين تسكُنين ؟

— مصر الجديدة .

— هى وِجْهَتى أنا أيضًا ...

— كيف ؟

— إنى أطلُبُ النزهةَ واستنشاقَ الهواءِ الطَّلْق .

— ولكن يا سيدى ...

— لا أستطيعُ أن أَدَعَ سيدةً فى عُرْضِ الطريق وهى فى لبُوسِ المنزِل .

— لابدّ أن شتي الهواجِسِ تَتَنازَعُكَ فى شأنِى ... امرأةٌ فى هذه الساعةِ ، فى سيارتِكَ على غيرِ مَعْرِفَة ، فى لَبُوسِ المنزِل ...

— لا أُخْفِي عنكِ دهشتي ! ... ولكننى قليلُ الفُضول .. تستطيعين أن تَصُونِى سِرَّكِ عنى !

— أشكُر لكَ ... كلُّ ما أريدُ أن أخبرَكَ به هو أن تثِقَ بحُسْنِ نِيَّتى .

— لم يَسُؤْ بِكِ ظَنِّى .

— ولِمَ هذه الثقةُ العاجلةُ المُرْتَجلَة ؟

فابتسمتُ وأنا أحرِّكُ فى يدى عَجلةَ القِيادَةِ ، وقلتُ : الحقُّ أنى لا أدْرِى لماذا !

— ألا تخشى أن تكون مُخطئًا ؟

— أرجو ألا أكونه ... !

ومضت السيارةُ تخترقُ شارعَ « الملكة نازلى » فى سَيْرٍ وئيد ... كان الهواء رُخاءً يحملُ فى أطوائه تباشيرَ الشِّتاءِ بنشاطِه وانتعاشِه . وكان الليلُ ساجيًا والطريقُ يكادُ يكونُ خاليًا إلا من بعضِ سيَّاراتِ الجيشِ الضَّخمةِ تمرُّ بنا فى جَلَبةٍ وضَجَّة فتهتزُّ لها سيارتى الصغيرةُ ، ثم لاتلبثُ السكينةُ أن تخيِّم على جانِبَيِ الطريق ... وتولَّانا الصمتُ وقتًا ، ورُحتُ أُفكِّرُ فى أمرِ هذه الفتاةِ التى رمانى بها القدَرُ فى تلك الساعةِ : ماشأنُها ؟ أمِنَ الغانياتِ هى ؟ أمِنَ الأُسَرِ الكريمة ؟ أمْ تلك الفتياتِ اللواتى نُسمِّيهنَّ « أنْصاف العذارى » ؟ هل قَصَدَتْ سيارتى قَصْداً ؟ ... وسمعتُها تقطعُ علىّ تفكيرى كأنها تُحدِّث نفسها :

ألم تحرِزْ نصراً فى حياتِكَ تعتدُّ به ياسيدى ؟

فقلتُ : لم تخلُ حياتى من ساعاتِ نَصْر ...

— أقصِدُ نَصْرًا حاسمًا ، كأنك خُضْتَ معركةً دامية كان لها أثرٌ فاصلٌ فى حياتِكَ ، معركةً خرجتَ منها وأنت تشعُرُ بأنك دفَنْتَ عهداً مُدْبِراً واستقبلتَ عهداً جديداً ...

— لا أدرى على وجهِ التحقيق .

— أما أنا فقد نلتُ هذا النصرَ ، نلتُه الليلةَ ، ياله من نصرٍ عظيم !

كانت تقولُ ذلك بلهجةٍ مِلْؤُها الزَّهْوُ والاِعْتزاز . وبعد لحظةٍ واصلتْ حديثَها قائلةً وهى تحدِّقُ أمامَها تحديقًا ثابِتًا : إن ثَمَّةَ لذةً لاتفوقُها لذةٌ أخرى ، هى تلك الوَقْفةُ التى يَقِفُها المحاربُ وقد سقطَ خَصْمُه بين يدَيْهِ صَريعًا ، ذلك الخصمُ الذى طالما ناوأَهُ وأعياهُ وأذلَّه ... إنها لنشوة عجيبة ، وإنه لَشُعُورٌ عظيمٌ حقًّا ... كنتُ أُنْكِرُ على المقاتلينَ قسوتَهم وأَنْعَى على الحربِ وَيْلاتِها ،

ولكننى حينما خُضتُ معركتى ونلتُ فيها نصرى عذرتُ كلَّ مقاتلٍ سفاك !

— يُدهشنى أن أسمعَ ذلك الرأيَ من مثلكِ ... المرأةُ ينبوعُ الشعورِ المرهف ، ومستودعُ الرحمةِ والحنان !

— الطبيعةُ الإنسانيةُ لا تختلفُ بين الرجلِ والمرأةِ ...

— قد تكونُ الطبيعةُ واحدةً بين الجنسيْن ، ولكننى أراكِ تعنُفين فى التعبيرِ عن هذا الشعورِ ...

— لو كنتَ ياسيدى ممن يخوضونَ المعاركَ الداميةَ ، ويمارسونَ المقاتلةَ والصّراعَ ، لما رأيتَ فيما أقولُ شيئًا من المُغالاةِ ...

— إننى أخوضُ معاركَ الدماءِ منذُ أمدٍ .. ولكنْ فى صورةٍ خاصّة !

— لستَ بجُنديٍّ على ما يلوحُ لى ! ؟ ...

— لاصِلةَ لى بالجُنديَّة .

— هل لى أن أسألكَ إلى أيّةِ الهيئاتِ الاجْتماعيةِ تنتمى ؟

— إلى الهيئةِ التى يُلقّبُها الناسُ بجزّارى بنى آدمَ الذين يحميهم القانون !

— أنتَ إذن جرّاح ...

— أصبْتِ !

وانطلقتْ منها ضحكةٌ رقيقة ، فقلتُ لها : أُقدِّمُ لكِ نفسى : دكتور شُهدى ، عيادتى فى العِمارةِ التى على بابِها أضافتْكِ سيارتى المتواضعة ...

— تشرّفتُ ياسيدى الدكتور .

وكنا قد شارفْنا « منشيَّة البكرى » وازدادَ الطريقُ إقفاراً ، وتغلغلَ فيه الصمتُ والسكون . وتتابعتْ نسماتُ الليلِ تهبُّ علينا باردةً مُنعِشة . ورأيت جارتى تتحسّسُ مِعطفَى وتدُسُّ يدَها فى طيّاته ، فقلتُ من فورى : ألا تُنيلينَ هذا المِعطفَ المسكينَ شرفَ تدثُّرِكِ به مرةً أخرى ؟

— أشكرُ لكَ هذه العاطفةَ يا دكتور .

وبادرتُ بِبَسْطِ المعطفِ عليها ، وإذا بها تقولُ : ألستَ الدكتور عبد الحميد شُهدى صاحبَ المباحثِ الطِّبِّيَّةِ التى تطالِعُ بها الصحفَ بين حِين وحين ؟

— قد أكونُه !

— قرأت لكَ فى الأهرامِ منذُ أيامٍ بحثَكَ فى الملاريا ، ووجدتُ لكَ فى مَجلَّةِ الحكمةِ هذا الشهرَ بحثَكَ فى البنيسيلين وأثَرِه فى الجِراحاتِ . وأذكُرُ أنى قرأتُ لكَ منذُ أشهر نصائِحَكَ فى التَّعْقِيم ...

— عَجَبًا ! ... أتُتَابِعِينَ أمثالَ هذه المباحثِ الجافَّة ؟

— لِى بالطبِّ وَلَع ... أتسمحُ بأنْ أقدِّمَ لكَ نفسى : سَمِيرَة عِزَّت ... وانتِسابى إنما هو لِأبى ...

— أكانَ لكِ أن تَنْتَسِبى لغيرِ أبيك ؟

— كان لى زَوْج ... يرحَمُه الله !

— أماتَ منذُ مُدَّة ؟

— دفنتُه الساعةَ !

— الساعةَ ؟

— دفنتُه ونفضْتُ منه يدِى ، ونزلتُ فاستقبلتْنِى سيارَتُك ...

— سيِّدَتِى ؟ !

— لقد صَرَعْتُ هذا الزَّوْجَ وانتهيْتُ من أمرِه .

— إنها لألْغَاز !

— ألم أقلْ لكَ إنى نِلْتُ نَصْراً حاسِماً ؟ ما زلتُ أتمثَّلُه وهو صَرِيعٌ أمامى ... انتهىَ ... انتهى كلُّ شىء !

وصمتَتْ ، فقلتُ مدهوشاً : أفصِحى ... !

فقالت فى لهجتها ذاتِ الرِّعْشَةِ المُنَغَّمة :

إنه قَتيلٌ في نظرِى ، أما فى نظرِه فليس يَهُمُّنى أن يعتبرَ نفسَه حَيًّا ...

فتنفسَتُ فى ارتياح ، وواصلتْ هى حديثَها :

أمرٌ لا يُؤْبَه له ... إنها خُزعبلاتُ الحياة ... لِنعُدْ إلى قصَّةِ الطب . أرغَبُ فى أن تعلَمَ أنى من أسرةٍ جُلُّ رجالِها أطبَّاء ... كان جَدِّى طبيبًا ، أحمد عزت باشا ...

— الدكتور أحمد عزت باشا ؟ من يجهلُ هذا الاِسمَ ؟ إن نظريَّاتِه الصائبةَ فى جِراحَةِ العين غزَتْ معاهدَ العِلْمِ في أوربَّة وحَظِيَتْ بأكبرِ تقدير ...

— وعَمِّى كان طبيبًا فى الجيش ، ولى أخٌ أتمَّ دراستَه في كلية الطبِّ المصرية وهو الآنَ فى لَنْدَنَ يتخصَّصُ فى جِراحَةِ العِظَام ... فلا يأخذنَّكَ العجبُ إذا وجدتَنِي أهوَى الطبَّ وما يتصلُ به ... إنى أعيشُ محوطَةً دائمًا بأدواتِه : مشارِط ، محاقِن ، ضِمادات ... أنفِي مُشْبَعٌ أبداً برائحةِ العقاقير ، حتى إنى لأشعُرُ بأن الهواءَ الذى أستَنْشِقُه يحملُ من ذرَّاتِها أوْفرَ نَصِيب !

وطفِقَتْ تستنشِقُ الهواءَ حولَها مِلْءَ رِئَتَيْها . ثم عادتْ تقولُ :

إنى مُعْجَبَة ببحثِكَ الأخيرِ فى الملاريا ... لقد طالعتُه غيرَ مرَّةٍ .

— حقًّا ؟

— إن طريقتَكَ فى تبسيطِ العِلْمِ بذلكَ الأسلوبِ السَّهلِ المحبَّبِ لا يُجاريك فيها طبيبٌ آخرُ ... كنتُ أقرأُ هذا البحثَ فكأنى أستمتعُ بقصَّةٍ طريفة ... هذا فضلاً عما يَتجلَّى في مباحثِك من نَزْعَةٍ إنسانيَّة كريمة ...

— إنى لجِدُّ مغتبطٍ بإطْرائِكِ هذا ، ولكن يلُوح لى أن ...

فقاطعَتْنِي كأنها غيرُ مَعْنِيَّةٍ بقولى : لما عرَفْتُكَ الساعةَ تبيَّنَ لى على الأثر وَجْهُ الصِّلَةِ بين شخصِكَ وبين ما تخُطُّه أناملكَ ... إن مباحثَكَ لمِرْآةٌ صافية تتراءى على صفحتِها المصقولةِ صورةُ نفسِكِ فى جَلاء ...

— سيدتى ، إنكِ تغمرِينني ...

فتابعتْ قولها كأنها لم تسمعْنى : إن الكاتبَ ليظلُّ مجهولًا كلَّ الجهلِ عند القارئ ، مهما يَقْرأُ له ، فإذا ما تعرَّفَ به ...

— وَقَعتِ الكارثة !

— فإذا ما تعرَّفَ به رأى القارئُ نفسه تجاهَ حالتيْن ، فإمّا انْهارَ ذلك الصَّرحُ الشامخُ بما يحوِيه من فتنةٍ وسِحرٍ انْهياراً لا قيامَ بعدَه ، وإما أن يزدادَ هذا الصرحُ تمكُّناً وسُموًّا ، وحينئذ تتوثَّقُ صلةُ الكاتبِ بالقارئ ، وترتفعُ مكانتُه عنده دَرَجاتٍ ...

— أهو شعورٌ يشارِكُكِ فيه كلُّ قارئٍ ؟

— يُخيَّلُ ذلك إلىّ ، وعلى أيَّةِ حال فهو شعورى الخاصّ ... وقد تعلمتُ منه أن أتجنَّبَ معرفةَ من أقرأُ لهم ، إذْ طالما مُنِيتُ بخيْبةِ أملٍ قاسية ...

فتنحنحتُ قليلًا ، ثم قلتُ : أَلِى أن أعرِفَ موقِفى فى هذه القضيَّة ؟

فتلاعَبَتْ بطَرفِ مِعْطَفى ، وقالت : حَسْبُكَ أن تحْزُرَ !

وانتبهتُ ، فإذا « مصرُ الجديدةُ » تلوحُ أمامى دونَ سابِقِ إنذار أو تمهيدٍ ، كأن الليلَ الغارقَ فى ظُلمتِهِ وصَمْتِهِ قد انشقَّ عنها دَفْعةً واحدة ، فبدَتْ حِيالَ ناظِرِى كأنها مدينةٌ مسحورةٌ من مدائنِ الأساطير .

وهمهمتْ جارتى : إنى أسكنُ فى شارِعِ الخليفةِ المنصور .

— أعرِفُه جيِّداً ، طالما عُدتُ فيه بعضَ المرضَى ، سأُبلِغُكِ إيَّاه ...

وسرتُ ووِجْهتِي شارعُ « الخليفة المنصور » ، وأظلَّنا الصمتُ وقتاً ...

ورأيتُ فتاتى تعبثُ بزِرٍّ من أزرارِ مِعْطَفى ، وعيناها تحدِّقانِ أمامَها لا تَطرِفان .

وأردتُ مواصلةَ الحديثِ ، فأعيانِى الأمر ... وبدَرَتْ منى سَعْلةٌ خفيفة ، وألفيتُ جارتى تقولُ وهى على حالِها : وَدِدْتُ أن أَجِدَ لى عملًا في الحياة ...

إنى تواقة لأن أُمارسَ أَيَّةَ مِهْنةٍ !

— أيُّ عملٍ تصبو إليه نفسُك ؟

— أقبلُ أيَّ عمل ... أُريدُ أن أشغلَ وقتى .. أملأَ ذلك الفراغَ الذى يُحيطُ بى ... أدفعَ تلك الوحْشةَ التى تَشيعُ فى نفسى !

وكان الهلالُ الوليدُ قد بدأ يلوحُ فى الأُفُقِ البعيدِ شاحباً ضئيلاً يتعثَّرُ نورُه الوَجِلُ بين الأبنيةِ الضخمة ، فكأنه يُحاذِرُ أن يكشفَ السِّترَ عن أسرارٍ خليئةٍ بالكِتمان . . وانتشرتْ خيوطُه الواهيةُ على وجهِ جارتى فأكسبتْها سِحْرَ الأطياف ... وتسللَتِ الأضواءُ إلى شَعرِها القانى سابحةً مضطربةً على مُوَيْجاتِه اللِّطاف ... ووجدتُنى أقول : أتحسَبِينَ أن المرأةَ للعملِ خُلِقَتْ ؟

فقالت : لأيِّ شيءٍ خُلِقَتْ ؟

فأمسكتُ عن الجواب ، ورأيتُنى أُخَفِّفُ من سُرعَةِ السيارة ، وأُتباطأُ بها تباطُؤاً جعلَ سَيْرَها أقربَ إلى سيْرِ الأقدام ... وخُيِّلَ إلىَّ أنى آخُذُ بيدِ فتاتى أجوزُ بها الطريقَ مُترجِّلا هيِّنَ الخُطُواتِ .

واختلجتْ شفتاىَ بقولى : المرأةُ لم تُخلَقْ إلَّا لأمرٍ واحد ...

— وما هو ؟

— إنها خُلِقَتْ للحُبّ !

فراعتْنى منها نظراتٌ ملتمِعَة ، وقالت : الحبّ ؟ !

— الحبُّ وظيفةُ المرأة ، وظيفتُها الأولى فى المجتمعِ ... !

وعلا صوتُها أكثرَ من ذى قبلُ وهى تقول : وإذا كان هذا الحبُّ أصلَ بلائها وجحيمَ حياتِها ، لم تنلْ منه غيرَ الخيبةِ والإذلال ؛ فماذا تصنعُ ؟

— تبحثُ عن حُبٍّ آخَرَ ... حبٍّ جديدٍ يَحُلُّ محلَّ الحبِّ القديمِ ويطارِدُه ... لايفلُّ الحبَّ غيرُ الحبِّ ! ... ألم تسمَعِى قولَ الشاعر :

ودا وِني بالتي كانتْ هي الداء ؟

فتضاحكتْ في رِفقٍ ، وقالتْ : وإذا أصابها الإخفاقُ في حبِّها الجديدِ ؟

— تبحثُ عن سواه !

— وهكذا ... ؟ !

— نعم ... الحبّ . الحبُّ دائماً . الحبُّ في حياةِ المرأةِ عنصرٌ لا يَقِلُّ خطَراً عن الماءِ والهواء ، بل إنه ليفوقهما ... إنه عنصرُ الحياةِ الأوّلُ !

— إني لأراه عُنْصُراً من عناصِرِ الدّمار ... إنه جُرثومةُ مَرَضٍ خطيرٍ فتّاك !

— هَبيهِ مَرَضاً ... هَبيهِ أيَّ شيءٍ آخرَ ... هو في نَظَري ألزَمُ للمرأةِ من أيِّ شيء !

— تُريدُنا أن نكونَ دائماً صرعَى هذا المَرَضِ العُضال ؟

— إن لبعضِ الأمراضِ تأثيراً سِحْرِياً في النَّفْسِ فتنجذبُ إليها وتُشْغَفُ بها ولا ترْضَى عنها بالصحة بَديلاً ... والحبُّ مَرَضٌ ساحرٌ جميلٌ يُضْفِي على حياةِ المرأة لوناً بديعاً أخّاذاً ... إنه ليدفعُها إلى الأخذِ بِطِرازٍ رائعٍ من العَيْشِ كلُّه « رومانسيَّةٌ » وفِتنةٌ ... لن تصيبَ المرأةُ كلَّ هذه المُتَعِ وهي مكتملةُ الصحة في رِحابِ الواقِعيَّةِ المبتذَلة !

فلاذتْ بالصَّمْتِ هُنَيهةً ، تائهةَ النَّظراتِ حالمةً . ثم همهمتْ :

يبدو لي أنكَ شديدُ الإيمانِ بالحبِّ !

— بل إني لشديدُ الإيمانِ بأن المرأةَ لم تُخْلَقْ إلا للحبِّ ! ... إنها دُمْيةٌ فاتنةٌ فيّاضَةُ القَلْب بهذه العاطفةِ النُّورانيَّةِ الوَضّاحة ... إنها ...

فقاطعَتْنِي بصوتِها المُنَغَّمِ الهادئِ قائلة : أنتم أيها الرجالُ تريدوننا تماثيلَ «عَواطِف» لا أكثرَ ولا أقلَّ ، تَنْصِبُونَها في أبهاءِ منازلِكُم لتفزَعُوا إليها إذا استبدَّ بكم الضِّيق ... !

— بل نَنْصِبُها في أعزِّ مكانٍ وأعْلاه قُدْسِيَّةً وطهارةً ، نَنْصِبُها في قلوبنا !

— إنكم لتمرُّون بهذه التماثيلِ لتُرْوُوا منها نفوسكم الصادية ، وتُشْبِعُوا نظراتِكم المنْهومةَ ، ثم لِتتَّخِذُوها أُفْكوهةً وسلْوَى ..

— بل لِنَخِرَّ لها ساجِدِينَ ضارِعينَ !

— كلامٌ معسُول ... إنَّ الأنانِيَّةَ لتحتلُّ من حياتِكُمْ أكبرَ مكان !

فأرسلتُ طرفي إليها مُتَفَحِّصاً ، فوجدتُها هادئةَ القَسِماتِ ، غارقةً في عُذوبة فيَّاضة ، وقد أسبلتْ جفنيها كأنها مُقبِلَةٌ على نُعاسٍ خفيف .. فقلتُ في شِبْهِ همس :

أأُعَدُّ نفسي ضِمْنَ من تَعْنِينَ من الرِّجال ؟

فتخايلتْ على وجهها ابتسامةٌ رقيقة ، وتحركتْ شَفَتَاها تقول :

وهل أنتَ إلَّا رجل ؟

— أذكرُ أني سَمِعْتُكِ منذُ قليلٍ تشهَدِين بأنَّ فِيَّ نَزْعَةً إنسانيَّة ...

فتضاحكتْ ، واندفعتْ تَعْبَثُ بِزِرٍّ من أزرار مِعْطفِي ... فقالتْ : حَذارِ ياسيدتي أن تَقْطَعِي الزِّرَّ ... إن مِثْلَ هذه الأزرارِ عزيزُ المَنالِ في الوقْتِ الحاضِر !

— لن أُلحِقَ ضرراً بمِعْطفِكَ ... سأتْرُكُهُ لكَ كُلَّه ... ألم نبلُغْ بعدُ شارعَ الخليفةِ المنصور ؟

وتلفَّتَتْ حولَها مَلِيّاً ، ثم همهمتْ : أحَسَبُنا قد تجاوزْناه . .

— يبدو لي أنَّ الخليفةَ المنصورَ غيرُ متعجِّل أن يَستَضِيفَنا ... !

— ألا تعودُ بي ؟

— حتماً ...

ووقفتُ السيارةَ ، ونزلتُ ...

فقالت : ماذا ؟

— على رُبَّانِ السفينةِ أن يَتَبَيَّنَ مكانَه من المِنْطقَةِ التي حلَّ فيها ، لكي

يستطيعَ أن يعودَ أدراجَه في أمان ...

وأدرتُ عيني حولى ، فإذا نحنُ على أبوابِ طريقِ « السّويس » ... وتجلّتْ لى عظمةُ الصحراءِ ، الصحراءِ المتراميةِ الأطرافِ التى لايُحدُّها النظر ، الصحراءِ العظيمةِ بسكونِها السابغِ ورمالِها المنبسطةِ تحتَ ضوءِ الأفلاكِ ، كأنَّها بُسُطٌ من اللُّجَيْن مُوشّاةٌ بثمينِ اللؤلؤ ... ومصرُ الجديدةُ رابضةٌ على مَرْمى البصرِ كأنَّها حيوانٌ ضخمٌ من الحيواناتِ المنقرضةِ فى العُصورِ القديمةِ دَهِمَه النُّعاسُ فتجمَّعَ بعضُه على بعض ...

وشاهدتُ فتاتى تتركُ السيارةَ وتقولُ : ماذا تقصِد بوَقفَتِكَ هذه ؟

فتطلعتُ إليها أتأمَّلها لحظةً ، مُعجبًا بقوامِها اللَّدْنِ ... لم تكنْ بالفارعةِ ولا بالقصيرة ، ولم تكنْ بالبدينةِ ولا بالضّامِرَة ... عُودٌ خِضْبٌ ريَّانٌ ، وجسمٌ متناسِقُ التكوينِ ، لا تُنكِرُ العينُ منه شُذوذاً ولا هُجْنة .

وراحَ الهواءُ يهاجمُها فى عُنْف ، ويُضرِمُ الثورةَ في شَعَرِها وملابِسِها ، فانبعثَت جاهدةً تُصلِحُ من شأنِها وهى تقولُ : أين نحنُ الآنَ ؟

— عن كَثَبٍ من السّويس ...

فصاحت : السّويس ؟

— أقصِدُ أننا منها على بُعْدِ ساعتين ... !

واشتدَّ عبثُ الهواءِ بها ، فهرَعْتُ إلى السيَّارةِ ، وسرعانَ ماعدتُ حاملاً معطفى ... وقلتُ : أطلبُ إليكِ باعتبارى طبيبًا أن ترتدِى المعْطف ...

فلم تُبْدِ اعتراضًا ، وساعدتُها على ارتدائه ، وكان سابغًا فَضفاضًا ، فتهدَّلَ كُمّاهُ على يديْها . فكركرَتْ فى الضحِك ، وهى تدورُ على عَقِبَيْها تتأمَّلُ نفسَها وتقولُ : ليس فى الإمكانِ أبدعَ ممّا كان ... !

— فى رأيى أنه مُنسَجِمٌ عليكِ أبدعَ انسجام ... كأنكِ فى لَبوسِ المحاماة

تُرْسِلين دِفاعَكِ على مَنَصَّةِ القضاء ، أو فى جُبَّةِ الأُسْتاذيَّةِ تُلْقِينَ محاضراتِك في مُدَرَّج الجامعة !

وأخذتُ بيدِها ، وسِرْنا متمهِّلَين ، ورأيتُها تُطوِّفُ ببصرِها متوسِّمةً ، واستقرتْ عيناها على القمرِ الفتيِّ يحاولُ فى جَهْدٍ أن يُبَدِّدَ حُلوكةَ الليل . وهينمتْ : إن الحياةَ ليست كريهةً كما تبدو للإنسانِ بعضَ الأحيانِ ... إنها تَنْطوى على جوانبَ لطيفة !

— هي مَلْأَى بالسّعادة لمن يريدُ أن يكونَ سعيداً ...

— وهل يكفى أن يرغَبَ الإنسانُ فى السعادةِ ، لكى يَظْفَرَ بها ؟

— نعم ، هذا رأيي ، وأرجو ألّا أكونَ فيه مُخطئاً ...

— لقد حاولتُ ، فلم أُصِبْ منها شيئاً على الإطلاق .

— لَمْ تكونِي فى رغبتِكِ مخلصةً !

فطمَحتْ بعينيها إلىّ ، وقالت : قد فعلتُ المستحيلَ ...

ثم مالت ببصرِها عنّى ، وأطرقتْ شاردةَ الفكر برهةً ، ولمحتُ قطَراتٍ من الدمع تنتثرُ على صفحةِ خدِّها ، وألفيتُها بغتةً تُخفِى وجهها فى منديلِها . ثم أخذتْ تُجفِّفُ دموعَها عَجِلةً ... وتدانيتُ منها وأنا أقولُ في صوتٍ رفِيق : لقد حدَّثتِني الآنَ بانتصارٍ باهرٍ نِلْتِه فى مُعْتَرَكِ الحياة ، فكيف يَبْكى القائدُ والنصرُ حليفه ؟

فهمست بقولها : يستوِى النصرُ والهزيمةُ فى نظرِ من كان مُوحِشَ القلبِ فارِغَه ... الدنيا التى تتجاوَبُ فيها الحركةُ والنُّورُ ليست فيما أُحِسُّ إلا صحراءَ مُقْفِرَةً داجِيةً !

فلاطفتُ يدَها وأنا أُردِّدُ مبتسماً :

أَلم أقلْ لكِ : وِداوِنى بالتي كانت هي الداءُ ؟

فتوهجتْ عيناها ، وقالت متهدّجةَ الصوتِ :

أفحسِبْتَ أنى ما برِحت أُحبُّه ؟ مُحالٌ أن يكونَ فى قلبى ذرَّةٌ من هذا الحبِّ !

وراحتْ ترُسل النظَرَ أمامَها ، وهى لا تنْبِسُ .

وبعد حينٍ وجدتُها تهمهم : إنى لأعجَبُ كيف أحببْتُه يوماً ؟ كنتُ غَرِيرَةً طَائِشَةً ... استهوانِي بمعسولِ الأحاديث وخلّابِ الأمانىّ ، فوَثِقْتُ به ، وَثِقْتُ ثِقَةً راسخة ... وكان الزواجُ ... وتوالتْ أيامُ صفاء وهَناء ، وما هى إلا أن تَبِعتْها أيامُ مِحْنَةٍ وشقاءٍ ... انقلبَ هذا الزوجُ الصَّفِيُّ مخادِعاً أثيماً متغلغلاً فى الإثْم والخِدَاع ... أصبحتْ حياتى معه جحيماً لا يُطاقُ فيها العَيْش .. ورَضِيَ أخيراً بالطَّلاق ، بعد أن بَذَلْتُ له فى سبيلِهِ أسخى العُرُوض ، وهو يُسْرِف فى مساوَمَة دَلَّتْ على خِسَّةٍ وضَعَةِ نَفْس .. كان هذا الذى نسمّيه « الحبَّ » أو على الأصحِّ هذه الجرثومةُ الخبيثةُ تَنْفُثُ فى دمى سُمُومَها ، فلبِثتُ حيناً أَرُوضُ نفسى على الخَلَاصِ من شَرِّها ، فتارَةً أُوَفَّقُ وتارةً أُخفِقُ ، حتى لقد عَنَّ لى فى ساعةٍ من ساعاتِ يَأْسِي شَبَحُ الانْتِحارِ يستدْنينى إليه ، فكدتُ أسْقُطُ بين بَرَاثِنِه ، وقَضَيْتُ فترةً كلُّها كِفَاحٌ وعَناء ، حتى وقعتْ حادثةُ اليومِ ، فكانتْ ختامَ المأساةِ وفَصْلَ المَقَال ... ثِقْ أن كلَّ شيءٍ قد انتهَى الآنَ !

— أوْ عَلَى وَشْكِ الانْتهاء ! ...

— بل انتهَى كلُّ شيء إلى غيرِ رَجْعة ، تَصَوَّرْ أنى تلقَّيْتُ منه اليومَ بطاقةً صغيرةً خَطَّ فيها كلِماتٍ مُفادُها أنه مَرِيضٌ مُشْفٍ على الموتِ ، يطمَعُ أن أُزَوِّدَ عينيْه بنظرةِ وَدَاع ... وقلَّبتُ البطاقةَ في يدِى لحظةً ... مريضٌ يلْفِظُ أُخريَاتِ أنفاسِه يدعو مُطَلَّقتَهُ إلى أن تُوَدِّعَه الوَدَاعَ الأخيرَ ... لستُ بالقاسيةِ حتى أمتنِعَ عن تلبيةِ دعوتِه في هذا الموقفِ الحَرِجِ .. ما زال قلبُه عامراً بحُبى ... لمعتْ هذه الخواطرُ فى رأسِي فوجدتُنى أقفِزُ نحوَ البابِ دونَ أن أُفكِّرَ فى

تغيير ثيابي ... وصعِدْتُ في أول سيارةٍ لَقِيَتْني ، وحَثَثْتُ السائقَ ليمضي سريعا إلى البيت ، و كنتُ في السيارة وهي تعدُو بي ألومُ تقسِي على ما قد بَدَرَ مني في حَقّه . أقسَوْتُ عليه كثيراً ؟ أعانَدْتُه طويلاً : أما كان أجدرَ بي أن أُصابرَهُ وأُلاينه ؟

وصَعِدْتُ إليه مَبهُورَةَ الأنفاسِ ، ودخلتُ حُجْرَتَه ، فماذا تظنُّ أني رأيتُ ؟

— ممدَّداً على سريرِهِ يُعاني سَكَراتِ الموتِ ؟

— بل في منامَتِهِ الحريريَّةِ الأنيقةِ يتوسَّطُ حجرتَه مُشْرِقَ الطَّلْعة يتوقَّدُ مَرحًا ويَقظةً ، وعن كَثَبٍ منه مائدةٌ تتزاحَمُ عليها أكوابُ الشرابِ وصِحافُ الطعام . وتقدَّمَ مني ثَمِلاً يتخلَّعُ والكأسُ في يمينِه ، وقال لي : « ها قد حَضَرْتِ ... » ووقفتُ مَصْعوقةً لا أُبْدِي حركةً ، ولا ألفِظُ حَرْفًا . واستأنفَ قولَه : « اِجلِسي ، اِجْلِسي ، إنكِ مَجْهودَةٌ . ما أشدَّ حبَّكِ لي ! » ولما وَجدَنِي جامدةً في مكاني أنظُرُ إليه مأخوذةَ اللُّبِّ ، اقتربَ مني وأمسكَ بيدي ، وأقبلَ عَليَّ ، وأحسستُ أنفاسَه المخمورةَ تصافِحُ وجهي ، وفَمَه المُتَدَلِّيَ يتدانى إلى فمي ، ووجدْتُني بغتةً وقد ارتفعتْ يَدي وأهوتْ عليه بصَفْعَةٍ اختلَجَ لها وترَنَّحَ . وطارتْ الكأسُ من يَدِه ... وحَدَجْتُه بنظرةٍ نكراءَ ، وصحتُ به : « إني أكرهُكَ ... أمقُتُكَ ... من تَظُنُّني أيها النَّذْلُ ؟ »

والتفتَتْ إليَّ ، وكأنَّ عينيها بُقْعَتا دَمٍ فائرٍ ، وقالت : أُقْسِمُ لكَ إنه لو كان معي حينئذٍ سلاحٌ لقتلتُه شرَّ قِتْلَةٍ ! ... لقد خرجتُ أعدُو من مَسْكَنِه لا أكادُ أَسْتبينُ طريقي ، وصادفتُ سيارَتَكَ فدخلتُ فيها على الأثَرِ ، ثم انكببْتُ على يَديّ أبكي ... وأبكِي ... وتخاذَلَتْ قُوايَ ، وخَدِرَتْ أعصابي ، وأحسستُ بالغَفْوَةِ تَسْرِي في أوصالي ! ...

وسرتُ معها جَنْبًا إلى جَنْب . دون أن نتناقلَ الحديثَ . وبعد هُنَيْهةٍ ألقيتُ عليها نظرةً فإذا هي تعبَثُ بين أصابِعِها بحِلْيَةٍ مشبوكةٍ في صَدْرِها ، فهمستُ :

حِلْيَةٌ لطيفة !

— لا بأسَ بها ...

وخلعَتْها وناوَلَتْنى إيَّاها ، فأخذتُ أُردِّد فيها النظر ، وكانت حليةً ذهبيَّةً نُقِشَتْ عليها صورةُ أبى الهول ، وتحتَ الصورةِ بِضْعُ كلمات لم أستطعْ تبيُّنَها . فقالت : مكتوبٌ فيها : « تذكارٌ لمتطوِّعاتِ الملارْيا » ... لقد مَنَحَتْنى هذه الحليةَ لجنةُ فتاةِ النيل تقديراً لعملى فى جَمْعِ التبرُّعات .

— أكنتِ فيمن يَجْمَعْنَ التبرعات ؟

— جمعتُ وحدى مِائتَي جُنَيْه !

— كثيراً ماحاصرَتْنى هؤلاء المتطوعاتُ وسلبْنَنى ما فى مِحْفَظَتى من نقود ... أكنتِ من هؤلاء السارقاتِ ؟

— يجوز !

— بل أؤكّدُ ذلك ! ...

— كيف تؤكّدُ ...

فصمتُّ برهةً ، وأنا أُحدّقُ أمامى ، وقلتُ في لهجةٍ لينةٍ خافِتةٍ : على أيَّةِ حال أشعُر شعوراً قوِيًّا بأنكِ سلبْتِنى شيئاً !

— أتعْنِي مِحْفَظَتَكَ ؟

— بل شيئاً أغْلَى وأعزَّ ...

ورنوتُ إليها ، فرأيتُ ابتسامةً هادئةً تَرِفُّ على مُحَيَّاها ، ومدَّتْ يدها إلَيَّ ، وقالتْ : هاتِ الحِلْيَةَ ...

فناولتُها إياها ، فشبكَتْها فى مكانِها من صدرِها ، فقلتُ : يظهرُ لى أن كلاًّ منا مهتمٌّ بالملاريا ... إن هدفًا من أهدافِ الحياة قد بدأ يَجْمَعُ بيننا ويُؤلِّف ... !

فعادت تعبثُ بِحِلْيتِها ، وهى تقولُ :

إن للملاريا جرثومةً أرجو ياصديقى الدكتور أن نكون بِمَنْجاةٍ منها ! ...

فألفيتُ نفسى أندفعُ قائلا : لقد كَشَفَ الطبُّ حديثاً أن لجرثومةِ الملاريا فضلاً فى القضاءِ على جراثيمِ بعضِ الأمراضِ المُسْتَعْصِيَة ...

فأجابت خافضةَ الصوت وهى تنظُرُ فى حِلْيَتِها وتعبَثُ بها :

أتظُنُّ أن جرثومتَكَ الخاصةَ بالملاريا قادرةٌ أن تَقْضِىَ على مرضٍ عُضالٍ كاد يُودِى بحياةٍ ؟ !

— إنى باعتبارى طبيباً تَعَمَّقْتُ فى دراسةِ هذه الناحية ، وباعتبارى أيضاً صديقاً تنطوى جوانِحُه على إخلاصٍ وَثيق ، أقولُ والأملُ مِلْءُ قلبى : سيتحقَّقُ ذلك بلا رَيْب !

فرفعتْ عينيها إلىّ ، فلمحتُها نَدِيَتَيْن ...

فأخذتُ يدَها بين كَفَّىَّ وجعلتُ أُلاطفُها ، وعيناي لا تفارِقانِ عينيها ...

وتشابكَتْ نظراتُنا وقتاً ، ونحن صامتان ...

وإذا بى أميلُ بفَمِى على يدِها ، فأُودِعُها قبلةً حافلةً حَرَّى !

حكام من السماء

ماذا يكونُ مِنْ أمرِ العالَمِ لو خَلاَ من الرجلِ وانفردَتْ به المرأةُ ؟

وماذا يكونُ من أمرِه لو خلاَ من المرأةِ وانْفَرَدَ به الرجلُ ؟

طُلِبَ إليَّ أن أُجيبَ عن هـذا السؤالِ ، فأَدَرْتُه فى خاطِرِى بُرْهَةً ، ثم شُغِلْتُ عنه ، فلما احْتَوانِى عالَمُ الكَرَى ، رأيتُ فيما يَرَى النائمُ أنى فى عَهْدٍ مِنْ عُهُودِ الفراعنة سَحِيقٍ ، وأن أحدَ الكَهَنَةِ فى « مَنْف » قد أقبلَ يَقُصُّ علىّ حديثاً عجباً . فأنا أرْوِيه هنا كما وَعَتْه مسامِعِى .

قال الكاهنُ الفِرْعَوْنِيُّ :

« زعَمُوا أنه فى غابِرِ الزمانِ المتغلغلِ فى الأزلِ ، حين فَرَغَ أبو الآلهةِ « رَعْ » من خَلْقِ الأرض ، ألْفَاها تَمِيدُ ولا يَقَرُّ لها قرار ، فأجواؤُها تَعِجُّ بثورةِ العناصرِ : أهوِيَةٌ تَعْصِف ، وحُمَمٌ تنفجر ، وبِقاعٌ تنخسِف ، وأُخْرَى تتسامَقُ . فاستوَى أبو الآلهةِ على عرشِه يُدَبِّرُ الأمرَ ، وقد توَّجتْ رأسَه سُحُبٌ متألِّقةٌ يَبْهَرُ ضوؤُها الأنظارَ ، واسترسلتْ لِحيَتُه الشَّهْباءُ على الأكوانِ كأنها مِظَلَّةُ الأمان ، فأخذ يُمَشِّطُها بأصابعِه الفِضِّيَّة الشفَّافَة ، فتَتَنَاثَرُ منها نجومٌ برَّاقة تتهاوَى فى السماء . وراح يُسَرِّحُ بَصَرَه فى الفضاءِ الأكْبَرِ ، حيثُ الكواكبُ المتراميةُ تلتمِعُ فى خَشْيَةٍ وتَهَيُّب . وكانَ « رَعْ » قد أقامَ على كلِّ كوكبٍ منها إلهًا من عشيرتِه

الذُّكورِ والإناثِ .

واستقرَّتْ عينُه ، بعد طَوْفةٍ شاملة ، على كوكبٍ صَخْرِيٍّ صَلْد ، فصاح « رَعْ » منادِيًا : يا شِتاء .

فاختلجَ الكوكبُ ، وقذفَ بحاكِمِه « شتاء » بين قدمَى أبي الآلهة ، وكان إلهًا ضخمَ الجِرمِ صُلْبَ العُودِ شديدَ الأركان . يلتحفُ عباءَةً ثلجيَّةً فضفاضةً ويبدُو على وَجْهِهِ شاربٌ غليظٌ من جليدٍ مُتَحجِّر . فأمره « رَعْ » أن يَخِفَّ من فورِه إلى الأرضِ وأن يُخْمِدَ ثورتَها ويُحْكِمَ أمرَها ، فحنا « شتاء » رأسَه إجلالًا وطاعة ، وانطلقَ يعدُو فى الأُفُقِ هابطًا إلى الأرض ، فكانت تهتزُّ عَباءَتُه فى هُبُوطِه ، فيتساقطُ منها جنادِلُ كالجبالِ يُسْمَعُ لها دَوِيٌّ صخَّاب .

ومَسَّ « شتاء » الأرضَ ، وبدأ تجوالَه في مناحِيها ، يخطُو خُطُواتِه الثقيلةَ الفِساحَ ، ويَصيحُ صيحاتِه المُدوِّيةَ العاتيةَ ، فتنكمشُ العناصرُ الثائرةُ ، وتُذْعِنُ لسلطانِ الحاكمِ المُسيْطِرِ . وتابعَ « شتاء » خطوَه هنا وهنالِكَ ، وهو يُلَوِّحُ بيديه يَمْنَةً ويَسْرَةً ، فإذا بأديمِ الأرضِ يَغْشاهُ البياض ، وإذا بهذا البياضِ يتكاثرُ ويتكاثفُ طبقاتٍ بعضُها فوقَ بعضٍ . و « شتاء » يوالِي سيْرَه ، وقد ساختْ قدماهُ الضخمتان فى هذه الطبقاتِ . وأراد أن يَرْكَنَ إلى مكانٍ يستقِرُّ فيه بعد أن اطمأنَّ إلى أن الأرضَ قد خَمدَتْ ثورتُها وشاعَ فيها الأمنُ والسكينةُ .

فطَوَّفَ ببصرِه حولَه ، فألفَى قِمَّةَ جبلٍ شامخٍ متميزةً بين قِمَمِ الجبال ، كأنما أُعِدَّتْ لتكونَ عرشَه المختارَ ، فتسنَّمَها وجلس عليها جِلسَةَ الفاتِحِ المنتصِرِ . وطال مُكْثُه على رأسِ الجبلِ لا يُبدِى حَراكًا ولا تطرِفُ له عين ، على فمه ابتسامةٌ ثابتةٌ جامِدَةٌ ، ابتسامةُ زَهْوٍ وكِبْرياءَ ...

وتَقَضَّتْ مِئُونَ من الأحقابِ لا نُدرِكُ مَداها ، ورزَحَ على الأرْضِ صمتٌ راكِدٌ مُوئِس ، وأظلَّتها غَتمَةٌ كَمْداءُ مُوحِشَة ، وانكمشتِ الأرضُ مُتَقلِّصةً

مُقشعِرَّةً كأنها تُريدُ أن تحتمِيَ من ذلك الزمهرير الذى ضرَبَ عليها رِواقَه .

واختلجتْ اختلاجةً شديدة وهمهمتْ : إنه الموتُ ... الموتُ الوَشِيكُ !

وعلى حينِ فجأةٍ ، ندَّتْ من الأرضِ صَيْحَةُ توسُّل وضَراعةٍ إلى أبى الآلهةِ « رَعْ » تبتهل إليه أن يرحَمَها ، وإلا كان الفناء مصيرَها ... وكانت الصيحةُ تنطوى على جَزَعِ اليائِسِ الذى سُدَّتْ فى وجهِه منافِذُ الرجاء ، فرَقَّ لها قلب « رَعْ » وأوحى إلى « شتاء » أن يَرتَدَّ إلى كوكبِه الذى كان حاكماً عليه من قبلُ ، فسُرْعانَ ماأطاعَ الإلهُ أمرَ مولاه ، وغادر الأرضَ يخترقُ الآفاقَ مجلجلا تهتزُّ عباءَتُه الناصعةُ الفضفاضةُ فيتساقَطُ منها الجنادِلُ تُدوِّى وتهْدِر .

وطوَّفَ أبو الآلهةِ « رَع » بطَرْفِه لحظةً في اللانهايةِ الأبَدِيَّةِ ، ثم استقَرَّ على كوكبٍ كان يتألَّقُ بنُورٍ سُنْدُسِىٍّ ، فصاح منادياً : ياصَيْفُ .

وفى طَرفَةِ عينٍ كانت بين يديه غادةٌ هيفاء رائعةُ الوَسامةِ ، كأنما صِيغَ قَوامُها اللَّدْنُ من لؤلؤٍ رَطْب ، يتموَّجُ عليه خُصُلَاتُ شعرٍ أملَسَ حالكٍ ، يتضوَّعُ منه نَسيمٌ رَضِيٌّ فوَّاح . فتراءت على وجهِ أبى الآلهة بَسْمَةُ رِضاً واطمئنانٍ . وهَيْنَمَ : أنتِ خيرُ من يحكُمُ الأرضَ !

فأقبلتْ عليه « صيفُ » تتهادَى فى رِفْقٍ وخشوع ، وانحنَتْ على يديه ، ومَسَّتْ بشفَتَيْها المتَّقِدَتَيْنِ كالجمرِ أطرافَ أناملِه الفِضِّيَّةِ الشفَّافة . فما أسرَعَ أن أحسَّ الإلهُ الأعظمُ انتفاضةً هيِّنةً تَسْرِى فى أوصالِه ، فنحَّاها عنه مُتَلَطِّفاً ، وهو يقولُ : حسبُكِ ياصيفُ ... اِهبطى الأرضَ بسَلام !

وحَلَّتْ « صيفُ » على الأرضِ ، وبدأت تَجُولُ على أدِيمِها في رَشاقةٍ ولِين ، تُنقِّلُ خُطاها وئيدةً مترفِّقةً ، فتطلَّعَتْ إليها شوامِخُ الجبال بهاماتِها الثَّلجيَّةِ مأخوذةً مسحورةً ، وما هى إلا أن تسايَلَتْ ذائبةً من رَوْعةِ تلك الفتنةِ التى لم يكن للأرضِ بمثلِها عهد . وواصلتْ « صيفُ » سيرَها ، وهى

تَبْسُطُ يديْها مرةً بعد مرةٍ فى هَوادةٍ ولُطْف ، فإذا بالأزاهيرِ تكسو أديمَ الأرضِ ناضرةً بهيجةَ الرُّواء ، وإذا العَتَمَةُ الكَمْداءُ المُوحِشَةُ تلوذُ بالفِرارِ أمامَ أفواجٍ من باهرِ الضِّياء ، وإذا الماءُ جداولُ تجُوسُ خلالَ المُروجِ الخُضْر ، وإذا الأشجارُ تتهدَّلُ أغصانُها وتُورِقُ حافلةً بأطيبِ الثَّمرِ .

وابتهجت الأرضُ بهذا العهدِ الجديدِ ، فما لَبِسَتْ فى غابرِها البعيدِ حُلَّةً بهيَّةً كالتى تبدُو فيها اليومَ . وتطلَّعَت العناصرُ متشوِّقةً إلى مُحيَّا « صيفَ » تتملَّى جمالَ هاتيْن العينين الحالِمَتيْن تَشِيعُ فيهما الوَداعةُ والصفاء .

فأما « صيفُ » فقد اطمأنَّتْ بهذا الفوزِ الذى نالَتْه ، فقصدتْ إلى خَميلةٍ ظليلةٍ ، وأعدَّتْ لنفسِها فِراشاً من الرَّياحين ، واضطجعَتْ عليه ، فأخذتْها غَفْوةٌ هادئة . وكانت تُرَدِّدُ فى نومِها أنفاساً حارَّةً تَنْبَعِثُ من حولِها فتذهبُ منتشرةً فى شتَّى الأنحاء .

وطالتْ غفْوةُ « صيفَ » مِئِينَ من الأحقاب لايُدْرَكُ مَداها ، وهذه الأنفاسُ الحارَّةُ المتلهِّبةُ ماتبرحُ ساريةً لايخبو لها أُوار . ورزحَ على الأرضِ ركودٌ خانقٌ ، فأخذت الأشجارُ تُصوِّحُ ، والأزاهيرُ تذْوِى ، والماءُ يتبخَّرُ من وَقْدَةِ القَيْظ . وأقبل الجَفافُ .. الجفافُ القاسى يَحْصُدُ بمِنْجَلِه كلَّ نبْت ، ويمتصُّ عُصارةَ الحياةِ فى كل صُقْع ، فاستحالَت المروجُ الفيَّاحةُ يَباباً بلْقعاً ، فعلَى مَدِّ البصرِ صحارَى مُمْحِلَةٌ تتصاعدُ من رمالِها أبْخِرةٌ لافِحة ... وثَمَّةَ الصمتُ ... صمتٌ مرهوبٌ يتجلَّى فيه الفَنَاء ... وأطلَّت العناصرُ من شقوقِها لاهِثةً عَطْشَى . ولم يبقَ من ذلك الفردوسِ الغاربِ إلا نُخَيْلاتٌ ثلاثٌ تجعَّدَتْ بَشَرَتُها وانكمشتْ ، فطأطأتْ هامَتَها تُظَلِّلُ « صيفَ » بسعفِها اليابسِ المُصْفَرِّ . وبين الفَيْنةِ والفينة تُرَوِّحُ وجْهَ الإلهةِ الحسناءِ المسترسلةِ فى نومِها ووجْهُها يتلظَّى .

وصاحت الأرضُ تستغيثُ بأبى الآلهة ، ضارعةً إليه أن يُنقِذَها من ذلك

السَّعير ، وأن يَرُدَّ عنها حكم تلك الإلهةِ الكَسُولِ التى لم تُحسِنْ من فنونِ الحكمِ إلا أن تُضرِمَ النارَ ثم تنام حالمَةً ...!

واستشاط أبو الآلهةِ غضباً ، واهتزَّتْ لحيته الشهباء المسترسلةُ على الأكوان ، فقصفت الرُّعودُ ، ولمعت البُرُوق ، وتهاوت الشُّهب . وعجب « رَعْ » لهذا الكوكبِ الأرضىِّ الذى لا يَرْضَى بحال ، وخشعت الأرضُ فزعاً من نقمةِ أبى الآلهة ، وانعقدَ لسانُها لا ينبس ... فنادى « رَعْ » : يا شتاء .

وأمره أن يَحُلَّ من ساعته محلَّ « صَيْفَ » ويستأنف على الأرض حكمَهُ الجبَّارَ .

وهبطَ « شتاء » الأرضَ ، وقد نفشَ حوله عباءته الثَّلجيَّةَ ، وفتل شاربه الغليظَ المتحجّرَ ، فخوراً تيَّاهاً بتلك الثِّقة التى أَوْلاهُ إياها ربُّ الأرباب . وجعل يجوبُ ذلك القفرَ الرَّحيبَ بخطاه الثقيلةِ الصُّلْبةِ يتلفتُ ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشِّمالِ ، باحثاً عن تلك الإلهةِ التى عاثتْ في أرضهِ فساداً ، فهدَّمتْ ما بَنى وخرَّبتْ ما عمَّرَ . ومضى فى تجوالهِ وقد لفحته شِدَّةُ الهجيرِ ، فألمَّ برأسه صُداع ، فهمهم :

ألا سُحقاً لهذه الإلهةِ التى تُدعَى صَيفَ ... إنى لا أجدُ لها أثراً ، لقد خشيَتْ بأسِى ، فولَّتْ هرَباً !

وأطلقَ قهقهةً راعدةً ، فما أسرعَ أن تجمَّعتْ في السماءِ غيْمةٌ جعلت تتكاثفُ !

وبينما هو فى طريقهِ وقد أجهدَهُ السَّيْرُ ، إذ تراءت له كُومَةٌ من السَّعفِ اليابسِ ، فصاحَ بها : ماذا أنتِ ؟

فاشرأبَّتْ النُّخيلاتُ الثلاثُ العِجافُ مذعورةً ، والنومُ يتطايرُ من أجفانِها ، وقامتْ فى جُهْدٍ وإعْياءٍ تحاولُ أن تُقوِّمَ أَوَدَها وتلُمَّ شعثَها ، وتستقبلَ تلك الهَبَّةَ الباردةَ التى أقبلتْ من حيثُ لا تدرى . وكانت الغَيْمةُ المتكاثِفةُ قد أخذتْ تتلبَّدُ ويتساقطُ منها رَذاذ .

ووقف « شتاء » يُحدِّقُ ، فإذا بحسناءَ ممدَّدةٍ على هَشيمٍ تُغطِّى جسمَها

خُصلاتُ شعرِها الأملسِ الحالكِ ، وهى مستغرقةٌ فى سُبَاتٍ عميق ، ووجنتاها تتّقِدانِ بحُمرةٍ قانية ... وهمَّ « شتاء » أن يرسِلَ صَيْحةً يبعثُ بها تلك الناعسة من رُقادِها ، ولكن الصيحةَ ارتدَّتْ إلى حَلْقِه ... وطالت وَقْفَتُه حيالَها ، وهو يرْمُقها مُتوسِّمًا ... ودبّتْ الحيرةُ إلى قلبه ، وانتابه قَلَقٌ ، ورأى أن يَسعُلَ ، ولكنه وجد غادتَه تُحرِّكُ أهدابَها ذَواتِ الظِّلال ... وما هى إلا أن تطلَّعَتْ « صيفُ » وهى تقولُ : من ذا الذى جاء يُقْلِقُ راحتى ؟

وتقدَّمَ « شتاء » خُطوةً ، وهو يُرَدِّد فى أدب كبير :

عفوكِ ... عفوكِ ... لم أقصِدْ أن أُزْعِجَكِ من منامِكِ ... إذا رَغِبْتِ فى أن أَمْضِيَ عنكِ أَطعتُ من فورى !

— من أنتَ ؟ وماذا تريدُ ؟

وكان لصوتها غُنَّةٌ فاترَةٌ تبعَثُ فى النفسِ الأحلامَ العِذابَ . وأحسَّ « شتاء » بألفاظِها تتسرَّبُ إلى حنايا نفسه ، فتُورِثُه شيئًا من التخاذُلِ . فقَبَضَ على شاربه يحاولُ أن يَفتِلَه ، لِيَشُدَّ من عزْمِه ويَبْعَثَ القوةَ في كيانِه ، فوجد ذلك الشاربَ الضَّخمَ المتحجِّرَ قد تراخَى هزيلا يتصبَّبُ قطراتٍ ... واعترَتْه رِعْشة زلزلتْ أركانَه ، ونظر إلى « صيفَ » فوجدها تتمطَّى فى استرخاء ، ويَتَضَوَّعُ منها شذاً طيِّب ، وسَمِعَها تُرَدِّدُ : من أنتَ ؟ وماذا تريدُ ؟

ورأى نفسه يتدانَى منها ويجثو ، ثم يقول بصوتٍ حَنونٍ :

إنى شتاء ... جئتُ أُونِسُ وَحْدتَكِ !

وأخذ بيدِها يُعينُها على النهوضِ ، فرنَتْ إليه بسَّامةَ الثغرِ فى تدلُّل وإغراء . ثم أسبلَتْ جفنيها وقالت : جميلٌ منكَ أن تؤْنِسَ وَحدَتى ...

وأدركَ « شتاءٌ » ضعفٌ بالغ ، ففزِعَ إلى شاربه يستمدُّ منه العون ، فلم يجدْ له من أثر . وإذا به قد تسايلَ على الأرض وتجمَّعتْ من ذَوْبِهِ بِرْكَةٌ

صغيرة ، راح « شتاء » يتأمّلها حيران دَهِشًا ، فأبصر وجهه وقد استحال وجهًا صبيحًا أَمْرَدَ يزهو فُتُوَّةً ونضارة ... وسمع « صيفَ » تقول :

كنتُ أعلمُ أن « شتاءً » شيخٌ أشيبُ ، ولكننى أجدُكَ فتىً فى مَيْعَةِ الصِّبا !

وتلعثم « شتاء » فهمهم بكلماتٍ متقطِّعة ... وأراد أن يدنوَ منها ، ولكنه أحسَّ عباءته الثلجية تذوبُ ... ياللهَوْلِ ! ... إن كِساءه الوحيدَ يزولُ عنه ... وبانَ صدرُه العريضُ ، وانكشفتْ ساقاهُ المكتنِزَتانِ ، فانتابَه جزَعٌ ، وأخذ يتشبَّثُ بما بَقِىَ من عباءته المتزايلةِ ليَسْتُرَ نفسه .

وأطلَّت العناصرُ من أوكارِها ، وطفِقَتْ تتهامسُ ويبتسِمُ بعضُها لبعض ، وترنَّحت النُّخَيْلاتُ الثلاثُ من طرَب ... وازدادت حيرةُ « شتاءِ » وكثُرَ تلفُّته حوله لا يعرِفُ ماذا يصنع ؟ وإذا بـ « صيفَ » تقولُ فى صوتِها الأَغَنِّ :

لا عليكَ ... اُدْنُ منّى لِأُخْفِيَكَ بشَعرى عن مَرْمَى العُيون !

وسرعانَ ما نمتْ حشيَّةٌ خضراءُ نضيرةٌ مكانَ ذلكَ الهشيمِ الذى كانت تتمدَّدُ عليه « صيفُ » ... واستجابَ لها « شتاء » فاقتربَ منها ، فمدَّت إليه ذِراعيْها ، وأمسكتْ بيديْه ، وهمهمتْ تقول :

شدَّما أنتَ مقرور ... توسَّدْ صدرى لتَنْعَمَ بدِفْءٍ طيِّب !

ولم يملِكْ « شتاء » إلّا أن يُذْعِن لما شاءت ، ووضع رأسه على صدرِ الحسناءِ ، فسدَلَت عليه خُصُلاتِ شعرِها الفَيْنانِ ... وتلاقى الوجهان ، وتشابكَت النظراتُ ، وما أسرعَ أن غابا معًا فى قُبلةٍ أغلبُ الظنِّ أنها لبِثَت عصوراً متطاوِلة !

وترادفَت مِئُونَ من الأحقاب ، وعاد للأرض زُخْرُفُها الفاتنُ ، فجرَت الأنهارُ ، وتجاوبَتِ البساتين بالأغاريدِ ، وسرَى النسيمُ في الأجواءِ أريجًا عِطراً ، وانطلقَت العناصرُ تتغنَّى وتتراقَصُ ، وأشرقَت على الأرضِ ابتسامةٌ رفَّافة ،

إذْ كانت تزهو بحُلّةٍ قشيبةٍ رائعة ...

وكان « شتاء » و « صيفُ » يسيرانِ جنبًا إلى جنب ، وكلٌّ منهما آخذ بخصرِ صاحبِه ، وهما يُطوِّفانِ في تلك المُروجِ السعيدةِ يَقطِفانِ الأزاهير ، ويَميلانِ على الغُدْران يرتشِفانِ خمرَ المحبَّةِ والهناءة ... وكان يدرُجُ حولهما طِفلاهما الوسيمان : « ربيعُ » و « خريفٌ » ...

فأما « ربيعُ » فعذراء ذاتُ عيونٍ خُضْرٍ تجمَّعتْ فيها فتنةُ الزهور .

وأما « خريفٌ » فإنه فتًى ذو شَعَرٍ ذهبيٍّ وهّاج .

وطال أمَدُ هذا النعيم ، فحسِبَت الأرضُ أن ذلك خُلْدٌ ليس له مُنتهَى ، فأخذتها العِزَّةُ ، وركِبَتْها الخُيلاء ، فطفِقَت تتطلَّعُ إلى الكواكب تيّاهة تتعالَى عليها بضَحِكاتِها ، وترشُقها بسُخْرِياتِها . ودبَّت الغَيْرَةُ في قلوبِ تلك الكواكبِ ، وكثُرَ بينها الهمسُ : همسُ التآمُرِ والكيْدِ ، إذْ عزَّ عليها أن تستأثِرَ الأرضُ الفانيةُ بهذا النعيمِ المُقيمِ الذى هو من خصائِصِ العالَمِ الباقي . ثم أرسلَت الكواكبُ من يُوَسْوِسُ بالوقيعةِ في أُذُنِ أبي الآلهةِ « رَعْ » ، فتعقَّدَ جبينُه غضبًا ، ورمى الأرضَ بشَظيَّةٍ من نظراتِه المتأجِّجةِ ، وهو يُدَمْدِمُ :

تبًّا لهذه الأرض التى لا تَلْقَى الأكوانُ منها إلا العناء !

وزُلزِلَت الأرضُ زِلْزالَها من هوْلِ تلك النظْرة ، وكادت تتبعثرُ أشْلاءً .

واستطرَدَ أبو الآلهة يقولُ :

كيف عَنَّ لكِ أن تستمْتِعى بهذا النعيمِ الدائمِ وتجعليه خالصًا لكِ فى عالَمِكِ الفانى ؟ أما عَلِمْتِ أن الفِردوْسَ الخالدَ إنما هو وَقْفٌ على العالَمِ الآخر ؟

ثم التفتَ إلى « صيفَ » و « شتاءِ » قائلًا لهما :

أمّا أنتما فلى معكما شأنٌ أىُّ شأن !

فجثا الإلهان على ركبتيهما خاشعَيْن ...

وانبعثت الأرضُ صارخةً مُوَلْوِلةً ، تلتمسُ الرحمة . ولكن « رَعْ »
لم يُلقِ لضراعتِها أُذُناً ، وازدادت الأرضُ نحيباً ، فانهملت دموعُها طوفاناً
دَفَّاقاً كاد يأتي على أرجائها جميعاً . وتراءت العناصرُ على الأمواج مجهودةً يكاد
يُدْرِكُها الغرقُ .. واضطُرَّ « شتاء » أن يحمِلَ « صيفَ » على ساعديه
يمخُرُ بها العُبابَ ، على حينِ تعلَّقتْ « ربيع » و « خريفٌ » بمنكبيه
يرجُفان ... وظلَّ الماء يتعالى حتى بلغ صدرَ « شتاء » والأرضُ مابرِحت
تنتحِبُ وتتضرَّعُ ، وازدادَ الماءُ عُلُوًّا حتى لامس ذَقْنَ « شتاء » ، وكَلَّتْ يداه ،
وأحسَّ بقدميْه يُصيبُهما الخوَرُ . فانطلقتْ من حلقِه صرخةُ استغاثةٍ حرَّى ، وقال :
يا أبا الآلهةِ ! ... إننا أتباعُكَ المخلِصون ... إننا أبناؤكَ البَرَرةُ ...
فلا تدَعْنا فريسةً للهلاكِ !

وألقى « رع » نظرةً عاجلةً ، فبَصُر بـ « صيفَ » وهي مُمَسَّدَةٌ على
ذِراعَيْ « شتاء » بقوامِها اللُّؤْلُؤِيِّ الرَّطْبِ تكسوهُ خُصُلاتُ شعرِها الحالكِ
الأملَس ، وهي ترسِلُ إلى أبي الآلهةِ نظراتِ توسُّلٍ واسترحامٍ من عينيْها الناعسةِ
ذاتِ الأهدابِ الطويلةِ السُّود ، وقد بدا على مُحيَّاها شُحوبُ الإعياء ...

وحكَّ أبو الآلهةِ رأسَه بإصبعِه ، فانتفش شعرُه ، فما أسرعَ أن
توهَّجتْ قُبَّةُ السَّماءِ !

أخيراً رقَّ للأرض قلبُ « رع » ... فقال لها :

كُفِّي نحيباً ... لو تركناكِ تذرِفين دمعَكِ الهَتُونَ لعمَّ الفضاءَ طوفانٌ طامٍ موَّاجٌ !

وفجأةً أخذ الماء يَغيضُ على وجهِ الأرض ...

ونطق الإلهُ الأعظمُ بحُكمِه :

رضِينا أن نُسلِمَ زِمامَكِ أيَّتها الأرْضُ إلى هؤلاء الآلهةِ الأربعةِ :
شتاء ، فربيعُ ، فصيفُ ، فخريفٌ ... على ألَّا يَحْدُثَ بينهم اجتماعٌ في زمان

واحـدٍ كما حـدث ، فليتولَّوْا أمرك متعاقِبين ، لـكُلٍّ منهم نَوْبة لا يَعْدوها ولا تَعــدُوه !

ومال ببصره إلى الآلهةِ الأربعةِ ، قائلا :

لقد سمعتم حُـكْمِي ، فاكْفُونى أمرَ هذه الصَّخابةِ التى لا تقنَعُ بشىء .. !

وأشار بصَوْلَجَانِه الشمسىِّ إشارةَ الإبرامِ ، فأومأتْ الأفـلاكُ إيماءةَ الطَّوعِ والإذعانِ ! ...

*

هذا ماوَعَيْتُه من حديثِ الـكاهِنِ الفِرْعونىِّ فى غَفْوتى .

فهل كان هـذا الُحـلْمُ إيحاءً بِمفْتاحِ الجوابِ عن السؤالِ الذى وُجِّه إلىَّ فى مصيرِ العـالَمِ لو انفردتْ به المرأةُ وحدَها أو الرجلُ وحدَه ؟

لست أدرى ... والله أعلم !

وليّ الله

في أُمْسِيَّةٍ من أماسِيّ مايو المُشْبَعةِ بأنفاسِ الربيع ، جلستُ إلى صديقي « برهان بك » في حديقته الفيْحاء ، بمَغْناه الأنيقِ في الجيزة ، نتطارحُ أحاديثَ ذاتَ شجون .

وكان صديقي من رجال الضَّبْطِ والأمْنِ الذين تبوَّءوا مناصبَ الإدارةِ في شتَّي الأقاليم ، حتى أدركتْه سِنُّ الإحالةِ إلى المعاش وهو وكيلٌ لمديرية الدقهلية . فاستقرَّ به المُقامُ في ذلك المَغْنَى بعد طولِ تَطْواف ، وبعد حياةٍ صاخبةٍ في مُطاردةِ الأشرار وإقرارِ الأمْنِ في رُبوع البلاد .

وعلى الرغْمِ من أن صديقي قد نَيَّفَ على الستين ، فإنه مابَرِح محتفظًا بطابَعِ الجُنديّ : قامةٌ فارعة ، وصدرٌ عريض ، وساعدان مفتولان ، ووجهٌ يُجَمِّله شاربان مسنُونان .

وفرغتْ جَعْبَتُنا من الأحاديث في جَلستِنا المُمْتِعة ، فما هو إلا أن غَشِيَنا الصَّمْتُ بعضَ الوقت ، وقد عَلِقَتْ عيونُنا بالقمر وهو يتعالَى في الأُفُق مَزْهُوَّ السِّماتِ ، يَبعَثُ بضيائه اللألاءِ خلالَ الأفنان كأنه ذَوْبُ الفِضةِ يتسايلُ قَطَراتٍ ...

ولما طابَ لي المجلِسُ ، وخشِيتُ أن يمتدَّ الصمتُ فيسرِعَ إلينا المَلَلُ

يشوبُ مانحن فيه من صفو ، اقترحتُ على « برهان بك » أن يقصّ عليَّ أعجبَ حادثٍ وقع له فى حياتِه الإداريَّةِ العامرة ...

فتبسَّمَ لى الصديقُ وهو يرقُبُ القمرَ هادئَ النَّظرات .

ثم قال :

يرى الناسُ أن حوادثَ الإجرامِ التى تمُرُّ بنا متشابهةٌ فى أكثرِها لا جِدَّة فيها ولا غرابة . وقد يكُونُ ذلك الرأيُ على حقٍ . ولكنَّ بين ذِكْرَيَاتى حادثةً تتميَّزُ عن سائرِ الحوادثِ بما كان لها من طَرَافةٍ ترتفعُ بها عن المألوف .

كنتُ آنئذٍ « حكمداراً » لمديرية الشرقية ، أُقيمُ فى المَسكنِ وحدى ، يخدُمُنى النُّوبىُّ « خير » الذى رافقنى فى كثيرٍ من تنقُّلاتى فى البلاد . وقد عَهِدْتُ فيه الأمانةَ والنشاطَ ، فحرَصتُ عليه وبَرِرْتُ به . وفى يومٍ ما استأذنَنى فى أن يتغيَّبَ نهارَه وليلَه لشأنٍ يتعلق بعلاجِ زوجِه ، وكانت مريضةً أَزْمنَتْ عِلَّتُها ، وطالت شكواها ...

وعاد خادمى فى غَدٍ ، يُعِدّ لى الفَطُورَ ، فسألته :

ماذا قال لكَ الطبيبُ يا خير ؟

فأبطأ جوابُه لحظةً وهو يتشاغلُ ببعضِ عملِه ، وقال :

لم نذهبْ إلى طبيبٍ ياسيدى !

— فإلى من ذهبتَ بزَوْجِكَ إذن ؟

فجعل يُنَظِّمُ وضعَ الأطباقِ على المائدة ، وهو يقول فى همهمة :

إلى الشيخ الطشطوشى ياسيدى !

— ماشأنُ الشيخِ الطشطوشى بمرضِ زوجِكَ يا خير ؟

— أنت تعرِفُ ياسيدى أنى لم أَدَعْ طبيباً إلَّا طَرَقْتُ بابَه ، وقد أرسلتَنى أنتَ إلى من تثِقُ بهم من الأطبَّاء ، مع الإيصاءِ بى ، فلم أَفُزْ منهم بطائل كما تعلم .

وأخذتُ أُفتُّ الخبزَ فى اللبن ، وأتناوله بِملعقتى ... ثم قلتُ :

وهل صادفتَ بُغيتَكَ عند شيْخِكَ الطشطوشىّ ؟

فاعتدَلَ فى وِقفَتِه ، وقال فى لهْجَةٍ جِدٍ ويَقين : كانتْ زيارةً موفقَةً ياسيدى !

فرفعتُ إليه بَصرِى أقول : هل شَفَى الشيخُ الطشطوشىّ زوجَكَ ؟

— لقد خَفَّتْ آلامُ الظَّهرِ كثيراً عن ذى قبلُ ، ولم يَبْقَ علينا إلا أن نزورَ الشيخَ مرةً أُخْرَى فيَتِمَّ الشِّفاء ...

فتلاعَبْتُ بملعقَتي وأنا أُصَعِّدُ فيه النظرَ ، وقد سَنحَتْ على فمى ابْتِسامةٌ ، وقلتُ :

أعلى ثقةٍ أنتَ بأن زوجَكَ استَشْعَرَتْ فائدةً حَقَّةً من هذا الشيخ ؟

فقال فى صوتٍ مِلْؤُه إيمانٌ بما يَقُول : ثِقْ ياسيدى أن لهذا الشيخ قوةً خارقةً فى شفاءِ المَرْضَى ... الناسُ جميعاً يتحدَّثُونَ بكراماتِه !

— وأينَ مكانُه ؟

— مُعْتَكِفٌ فى زاويةٍ على أطرافِ قَرْيَةِ أبى العرائس ...

وعلمتُ أن القريةَ تَنْأَى عن العُمْرانِ ، فبينها وبينَ « الزقازيق » ، حيثُ أنا مقيمٌ ، ثلاثُ ساعات : فى السيَّارةِ نصفُ الطريق ، وعلى الرَّكُوبَةِ نصفُه الآخر .

وفي مَدْخَلِ الليل ، وأنا أُدَخِّنُ لِفافتى بعد أن تناولتُ العَشاءَ ، أخذَ خادِمِي « خير » يَرْوِى لى أشتاتًا من أنباءِ كَرَاماتِ شيخِه « الطشطوشىّ » وسماحةِ نفسِه ونُبْلِ خلائقِه ، فاستثارَ فُضولى بهذه الأحاديثِ ، وهو يندفعُ لا يَمَلُّ ولا تَنْفَدُ له كلماتٌ ، وأنا أَسْتَطِيبُ حكاياتِه وأنباءَه وأستعِيدُه ، إذْ كنتُ مشغوفاً بدَرْسِ نفسيَّاتِ الشُّذَّاذِ من الناس فى هذا المجتمع ، ولى ملاحظاتٌ وإحصاءاتٌ شخصيةٌ أَسْتَلْهِمُ فى شأنها تجاربِي .

وقلتُ لخادمى « خير » أخيراً : متى تزورُ الشيخَ زيارتَكَ الثانية ؟

— يومَ الخميسِ المقبِل يا سيدى ...

— ربما صَحِبْتُك ياخير ...

فنظَرَ إلىَّ نظرة حَيْرَةٍ وتساؤل ، قائلاً :

سَلِمْتَ ياسيدى ... هل لك عنده طَلِبَة ؟

فابتسمتُ ابتسامةَ إشْفاق ، وقلتُ : لا يخلُو الجِسْمُ من عِلَّةٍ ياخير ...

— أُبَشِّرُكَ بأن الشفاءَ سيتحقَّقُ على يدَيْه !

— سأُجرِّبُ طِبَّ شيخِك فى علاجِ قَدَمِى .. أنتَ تعلَمُ أنى أشكو التِواءَ خفيفاً فيها ...

فقاطَعَنى « خيرٌ » قائلا : من جَرَّاءِ الحادثِ المعروفِ يومَ خرجْتَ تطاردُ نفراً من المُجْرِمِينَ فى بعضِ قُرَى أُسْيُوطَ ، فسقطتَ عن فرَسِك ...

— الأمرُ كذلك .

— رُقْيَةٌ واحدةٌ من شيخِنا الطشطوشىّ ستمسَحُ عنكَ الألَمَ لا محالة .

فنفَثْتُ دُخانَ لِفافتى متضاحِكاً ، وقلتُ : على بَرَكةِ اللهِ !

انبَلَجَ صُبحُ الخميسِ ، فصحوتُ مع الطَّيْرِ ، وتنكَّرْتُ فى ملابسِ شيخِ بلْدَةٍ ، وساعدَنى على اختفاءِ شخْصِيَّتى أن بَشَرَتى أمْيَلُ إلى السُّمْرَة ...

واستأذَنَ علىّ « خيرٌ » فما إن رآنى حتى بَدَتْ عليه دَهْشَةٌ ، فقلتُ : إنى لا أريدُ أن أكونَ نَهْبَ عُيُونِ الناس !

فهمهم وهو يكتُمُ ابتِسامتَه :

لكَ حقٌ ... سعادةُ الحكمدار يقصِدُ إلى الشيخ الطشطوشىّ ليُعالِجَه ؟!...

وخرجتُ أطلُبُ الطريقَ إلى السيَّارةِ ، فاعترضَتْ عيني كُومَةٌ مُلَفَّفَةٌ فى السَّوادِ لا يبدُو منها إلا عينان تُومِضانِ وَميضاً مضطربا ... فربَّتُّ كَتِفَها ، وقلتُ : كيف الحالُ يا حاجَّةُ ؟

فتمخَّضَتْ الكُومَةُ عن صَوْتٍ هزيل مرتجفٍ ، يقول :

الحالُ على مايُرامُ ببركةِ الشيخ الطشطوشى !

ثم جعلتْ تتمتمُ بأدعيةٍ وصلوات .

وجاء « خيرٌ » فأخذ بيدِ زوجِه وتبعانى إلى السيارة ، فصعِدْنا فيها جميعاً .
وأبَتْ الـكُومةُ إلا أن تقتعِدَ أرضَ السيارة أمامى ، على حـينِ جلس زوجُها بجوارى متضائلاً منكمِشاً فى جلبابِه القَشيب ...

وانبعثت السيارةُ تَطْوِى الطريقَ ، متجهةً إلى « كفر صقر » والـكُومةُ السوداء أمامى صَمُوتٌ تهـتزُّ كأنها صُرَّةٌ مُلْقاة ... !

وكان يقطعُ السكونَ بين فَيْنةٍ وفينـةٍ حديثُ « خـيرٍ » فى إطراءِ الشيخ « الطشطوشىّ » وروايةِ مايتناقلُه النـاسُ من عجائبِ الأقاصيص . فهو صائمُ الدهرِ قنوعٌ لا يَطْعَمُ إلا ما يُمْسِكُ رمَقَه ، ولا يَدَّخِرُ من قوتٍ ولا مال ، بل يجودُ بمـا يتجمَّعُ لديه من الهدايا والصِّلاتِ على مَن يلوذونَ به من البائسين وذوى الخَصاصة . وهو يعتكفُ ستةَ أيام من الأُسبوعِ فى زاوِيَتِه مُغْلَقةً عليـه لا يفتحُها أحد ، يقومُ فيها الليـلَ متهجِّداً يصلِّى ويقرأُ وَيَبْتَهِل ، حتى إذا كان يومُ الخميسِ فتحَ بابَ الزاويةِ لقاصِدِيه وزُوَّارِه ، وجلس إليهم يُعالجُ من شئونهم ويدعو اللهَ لهم ويمنحُهم الخيرَ والبركات ...

وكان « خـيرٌ » كلَّما أكملَ جانباً من حديثِه نظرَ إلى الـكُومةِ السوداء فإذا بها تُومِئُ برأسِها إيماءةَ التصديق ، وهى فى صَمْتِها مسترسِلة ...

وما إن وصلْنا إلى « كَفْر صقر » حتى اكترَيْنا حميراً ثلاثةً أَقلَّتْنا تمشِى الهُوَيْنَى مخترِقةً المُروجَ والحقول فى لَيَّاتٍ من الطُّرُق عسيرةٍ .

ومما زاد من وَعْثاءِ الطريق وَقْدَةُ القَيْظ ، فقد آذَتْنا لَفَحاتُ الشمس ...

وكنتُ في أثناءِ السير أُسرحُ بفِكرى فيما سأُصادِفُه عند الشيخ مما يُعينُنى فى أبحاثى النفسية التي شغفَتْني حبًّا .

ولاحت لنا مشارفُ قريةِ « أبي العرائس » فأشار « خيرٌ » إلى مبنًى صغيرٍ ناصع البياضِ تلتفُّ به شُجَيراتٌ عِجاف . وقال : تلك هي الزاوية .

فاتَّجهنا صوبَها ، فلمحتُ زَرَافاتٍ من الناسِ بين جالسٍ بالباب ، وبين مُطِيفٍ بالزاوية ، وبين مُنصرِفٍ عنها أو مُقْبِلٍ عليها ...

ونزَلنا عن المطايا ، وخطوْنا إلى البابِ ونحن تفسَحُ لنا مَنْفَذاً بين الجمعِ ... واستطعنا أن نَلِجَ الزاويةَ ، فإذا برَحْبتِها تَزْخَرُ بالقُصَّادِ والأتباعِ : هؤلاء أشياخٌ يتحاملون على عُكَّازاتِهم في مَشقَّةٍ وعناء ، وتلك نساءٌ يحمِلنَ أطفالَهُنَّ الهازيلَ في تأفُّفٍ وحُنوّ ، وأولئك ضروبٌ من الناس : هذا قد عَصَبَ بمنديلِه رأسَه ، وذلك قد لَفَّ بالضِّمادات ذِراعَه ، وهذه تُسْبِلُ على عينيها الرَّمْداوَيْنِ خِمارَها تحاولُ شَقَّ طريقِها فتتخبَّط ... ولم يرُعْني في ذلك كلِّه إلا مَسْحَةُ البِشْرِ والأملِ تَفيضُ بها تلك الوجوهُ التي قَدِمَت تلتمِسُ البُرءَ من أدوائها ، أو لِتُوفِيَ بالنَّذْرِ جزاءَ ما لَقِيَتْ من شِفاء .

وكان المكانُ رَطْباً شحيحَ الضَّوء ، أحسستُ فيه بردَ الراحةِ من لَفَحات الطريق . وعلى الرَّغْمِ من تكاثُرِ الناسِ فيه وازدحامِهم به كانت تغشاهُ سكينةٌ طيِّبة وهدوءٌ مُحبَّب يَبعثان في النفسِ أَمْناً وطُمأنينةً . فلم يكن يَطْرُقُ سمعي في الزاويةِ إلا همهماتٌ يُلقِي بها بعضٌ إلى بعض في تهيُّبٍ وخشية ، وإلا دعواتٌ إلى اللهِ أن يَمُدَّ في عُمرِ الشيخ ويُديمَ على السائلين نفحاتِه الزاكِيات .

وكان « خيرٌ » وكُومتُه السوداء يتقدَّماني ، فما إن مَشَيْنا بِضعَ خُطواتٍ حتى انفرجتْ ثُغْرةٌ رأيتُ فيها قبراً ظاهراً برَزَ منه شاهدٌ بعِمامةٍ خضراء ، وعن كَثَبٍ من القبر مصطبةٌ يتربَّع عليها شيخٌ يرتدي البياضَ الناصعَ كبيرُ العِمامةِ فضفاضُ الجُبَّة في يدِه مِسبحةٌ غليظةُ الحبَّاتِ تملأُ حِجرَه ... وكان صَبيحَ الوجهِ ، برَّاقَ النظرات ، تهدَّلُ لحيتُه الشهباءُ على صدرِه في مَهابةٍ ووَقار ...

وتدانينا من مجلسِهِ بخطًا هيِّنات ، ثم اتخذنا مكانًا على مَقْرَبَةٍ منه نرتقِبُ نَوْبَتَنا في الجلوسِ إليه ... وغمزَ لى « خيرٌ » بعينِه يشيرُ إلى القبر ، وهمسَ فى أُذُنِي يقولُ : إنه مَثابةُ الشَّيخ ... يَقْضِي فى غيابَتِه جُلَّ وَقْتِه !

وبَقيتُ لحظةً متعجبًا أُردِّدُ الناظرَ بين الشيخ والقَبْر ... وبعدَ قليلٍ وَجَدْتُني أَرْكُزُ بَصَرى فى وَجْهِ الشيخ ، وأُطِيلُ التحديقَ فى عينَيْه ...

وأطرقتُ أُسائِلُ نفسى : أَلِي بهاتَيْن العينَيْن سالفُ عَهْد ؟

ثم رفعتُ بصرى أُعاوِدُ التحديقَ في وَجْهِ الشيخ . ووَجَدْتُني أتلفتُ حولى ، فأرى أتباعَه قد تعلقتْ نظراتُهم بوَجْهِه كأنما وصلَتْهُمْ به أسلاك ... وقد كانُوا يُرْهِفُونَ إليه السَّمْعَ فاغِرينَ أفواهَهم في تطلع واختلاب . والشَّيْخُ يَلْفِظُ كلماتِه رَخِيَّةً فى غُنَّةٍ عَذْبة وهو يَرْقِي مَرْضَاه ويمسحُ على رُءوسِهِم فى تحنُّن وإشْفاق ... وبين حين وحين أَلْحَظُ يدَه قد امتدَّتْ فى خُفْيَةٍ ومُسارَقَةٍ إلى قاصِديه المُعْوِزين يَبَرُّهم بالعَطايا فى صَمْتٍ وسُكُون ...

وعُدْتُ أتطلَّعُ إلى الشيخ أَرْقُبُ نظراتِه الثواقبَ ، وامتدَّ بى التطلُّعُ والارتقابُ ، وشَرَدَ ذهنى يتصفَّحُ سَوالِفَ الذِّكْرياتِ ..

وبغتةً سمعتُ الشيخَ يقولُ : تقدَّمْ ... ما عليكَ بَأْس ...

وأقبلتُ عليـه ، واتخذتُ مجلِسِى قُبالَتَه ... وتلاقَتْ نظراتُنا ... ولبثْنا وقتًا يرنو كلٌّ منا إلى صـاحبِه صامتًا ... أثمةَ اختلاجةٌ طرأَتْ على قَسِماتِ وَجْهِ الشيخ ؟ ... وشاهدتُ ابتسامةً خفيفةً تَعْبُرُ فَمَه .. أهى ابتسامةٌ غامضةٌ يحاولُ بها الشيخُ إخفاءَ بعضِ مشاعِرِه ؟

ورجعتُ إلى نفسى أُسائِلُها : أعلى يَقِينٍ أنا من أنى لم أَشْهَدْ هذا الوجهَ قبلُ ؟

وأنبهَتْنِي غَمْزَةٌ غَمَزَنِي بها « خيرٌ » يُشِيرُ إلَيَّ أن أتقدَّمَ . وسمعتُه يقولُ للشيخ : إن صاحبي يشكو قَدَمَه ، وقد جاءَكَ يلتمِسُ الشفاءَ على يَدَيْك ...

ومددتُ للشيخ قدَمى ، وأنا أُهمهم :

منذُ أعوامٍ سقطتُ عن فرَسِى سَقْطَةً ما زلتُ أجدُ ألَمهَا فى قدَمِي حتى اليوم ...

فمدَّ الشيخُ يدَه ، وتمتمَ قائلاً : ستُشْفَى بإذنِ الله ...

ثم شَرَع في رُقْيَتِه هادئَ الملامحِ فى صوتِه الأغنِّ المعهودِ ... وما إن انتهتْ رُقيتُه حتى قال فى نبرَاتٍ واضحةٍ : الشفاءُ منكَ قريب ، والله على كلِّ شيءٍ قدير ...

ثم أسبلَ جفنَيْه ، وكأنما قد غَشِيَهُ سُبات ... فجذَبَنِي « خيرٌ » وهو يقولُ :

ضعْ تحتَ مِنْدِيلِ الشيخ ما تجودُ به نفسُكَ ...

فأخرجتُ قِطْعَةً من النقود ، ودفعتُها تحتَ ذلكَ المِنْدِيلِ الأحمرِ المبسوطِ عند قدمَىْ الشيخ ... ونهضتُ إلى البـاب تاركاً « خير » والـكُومَةَ السوداءَ يقضِيَانِ مأرَبهما عند شيخِ الزاوية .

وخرجتُ أتفيَّأُ ظلَّ شجرةٍ اجتمعَ تحتهـا لفيفٌ من زُوَّارِ الشيخ يتحدَّث بعضُهم إلى بعضٍ ، فجلستُ قريباً منهم ، وبادلتُهم تحيـةً بتحية ، وخُضتُ معهم في الحديث . وجعل كلٌّ منهم يَرْوِى لرُفْقَتِه غرَضَه من الزيارة ، وما أصابَ على يَدِ الشيخِ من برَكةٍ وخَير .

وسَمَتْ نفسى إلى أن أتعرَّفَ شأنَ الشيخِ كلَّه ، فرُحتُ أُسائِلُهم عن نشأَتِه وحياتِه . فانطلقَ أحدُهم يَرْوِى حادثاً عجيباً وقعَ منذُ عَشْرِ سِنينَ ، وذلك أنه كان خيرَ بعيدٍ من القرْيةِ قبرٌ متهدِّم مهجورٌ لوَلِيٍّ من أوليـاءِ الله اسمُه الشيخ « الطشطوشىّ » ، لم يكن يَقْصِدُ إلى زيارته إلاَّ نفَرٌ قليلون من أهلِ القرية وما حوْلها .

واتفقَ يوماً أن مَرَّ بجانبِ القبرِ فلاح مَرِيضٌ نَهَكَتْهُ العِلّة ، وكان الإعياءُ قد بلغَ منه مَبْلغا ، فأراد أن يَتَّقِي لَفْحَ الهجيرِ ويَنعَمَ بقِسْطٍ من الراحة ، فأوَى إلى ظلِّ شُجيرَةٍ خاوية عن كثَبٍ من الجدَث . وما هى إلا أن سَمِعَ حركَةً تضطربُ فى أغْوَارِ القبر ، فانتفضَ مذعوراً وهمَّ بالهرَب ، ولـكنْ تخاذلتْ قواه ...

وسرعانَ ما أطلَّ رأسٌ من فُوهةِ القبرِ ، فما كاد يرى الفلاحَ أمامَه حتى اختفَى فى مستقرِّه عائداً . فجمَدَ الرجلُ المريضُ مذهولاً ، وأراد أن يستصرِخ فاختنقَ صوتُه في حلْقه ، وتسمَّرتْ قدماه فلم يستطعْ حراكا ، ومرَّت به فترة كان فيها مأخوذاً ... وسنحتْ بخاطِره أسطورةٌ كان قد سمِعها فى حداثتِه من عجائزِ الحيِّ ، وهى أن الشيخَ « الطشطوشيَّ » يُبْعَثُ كلَّ خمسين سنةً مرةً ، وأن من يُسْعَدُ برُؤيتِه فى مبعَثِه ينالُ مايَطْمَحُ إليه هواه ... فأحسَّ بشىء من الطُّمَأنينةِ والأمنِ يسْرِى في أوصالِه ، وتطلَّعَ إلى القبرِ طويلاً ، وبدأتْ شفتاه تختلجانِ بألفاظٍ مضطربة ...

وامتدَّ به الوقتُ وهو يغمغِمُ ولا يكاد يُبِينُ . ولكنه بعدَ حينٍ ألفى نفسَه يُرْسِلُ الصيحةَ عاليةً يقولُ : ياولىَّ الله يا ملاذِى ، فرِّجْ بحقِّ المصطفى كُرْبتى !

ولبثَ ينتظر وعيناه لا تُفارقانِ فُوهةَ القبر ، وعاد يتضرَّعُ مستنجداً في تذلُّلٍ وتخاضُعٍ ، قائلا : بحقِّ المصطفى لاتخيِّبْ رجائى ، أنِلْنى ما أبتغى ، وأشْرِقْ بنورِ طلعتِكَ علىَّ ياقطبَ الأقطابِ !

واندفَع فى توسُّلاتٍ متواصلةٍ فى حرارةٍ وعُمقٍ ، فألفَى القبرَ يضطربُ . وما هى إلا أن تثاءبتْ فُوهَته عن وجهِ الشيخ ...

وشاعَ الصمتُ برهةً ، والرجلُ يتطلعُ إلى الشيخِ جاثياً ...

وأخيراً تكلمَ الشيخُ ، فقال : ماذا تريدُ منى ياعبدَ الله ؟

فهمهم الرجلُ وقد حسَر بصرَه : أنِلْنى برَكتَكَ ، وأبرِئْنى من عِلَّتى ...

فتمتم الشيخُ بكلماتٍ غوامضَ ، وقد لوَّحَ بيدِه فى وجهِ الرجلِ يَمنةً ويَسرةً ، ثم تضاءلَ وتراجعَ حتى انطوى خلفَ الرِّجام ...

فمكثَ الرجلُ وقتاً لا يَرِيمُ مكانه ، ولا يَحيدُ ببصرِه عن فُوهةِ القبر ، وهو يُرهِفُ السمعَ ، ولكن الصمتَ كان قد خيَّم وشاعَ ...

وهمَّ الرجلُ بالقيام، فآنس من نفسه فورَةَ قوةٍ ووَفْرةَ نشاط، وإذا به يجدُ ألمَ العلة قد تزايلَ حتى كاد لا يكونُ له أثر ... فهرول نحو القريةِ وفاضَ سِرُّه عن حنايا صدرِه، فانطلق يَروى ماجرى له في حَميَّةٍ وحماسة وإيمان، حتى لقد ذهبتْ به ظُنونُ سامعيه كلَّ مذهَب، وحسِبوه قد مَسَّه خَبال ...

ولم تمضِ أيام حتى شاع فى القريةِ أن الشيخَ « الطشطوشىّ » قد انبعثَ من قبرِه وتمثَّل للناسِ بَشَراً حيًّا ... وتحقَّقَت الأُسطورةُ فى مبعَثِ الشيخِ كلَّ خمسين سنةً مرةً، فلم تتوالَ أيامٌ حتى كانَ القبرُ مزارَ الأفواجِ صباحَ مَساءَ؛ والشيخُ يخرُجُ لهم فى الفينة بعد الفينة يمنحُهم البركةَ ويطلُبُ لهم من الله تحقيقَ الرَّغابِ ... وكان بعد ذلك أن أُقيمَ بناءُ الزاويةِ حولَ القبرِ، وأصبح للشيخِ مكانةٌ يتناقلُ الناسُ أخبارَها فى القُرَى دانيها وقاصِيها ...

وما كاد محدِّثُ الجمعِ يصلُ إلى هذا من حديثِه، حتى بدا أمامى « خير » وزوجُه وهما فى نَشْوةٍ من الابتهاج، تلتمعُ أعينُهما التماعَ التفاؤُل والاستبشار ... وقصدنا رِباطَ المَطايا، واعتليناها عائدين .

وفيما كنّا نقطَعُ الطريقَ كان « خير » مسترسِلا فى ثرثرةٍ مختلطةٍ من الأسئلة والأحاديثِ لم أُلْقِ لها بالا، إذْ كنتُ فى وادٍ آخرَ من الأخيلةِ والتصوُّراتِ ... حتى وصلْنا إلى « كفرِ صقر » فنزلنا عن المطايا لنركبَ السيارةَ . وسألنى « خير » وهو منكمشٌ فى رُكْنِه، والكُومةُ السوداءُ مُلْقاةٌ تهتزُّ بين قدميه : ألم تشعُرْ بفائدةٍ ياسيدى ؟

فقلتُ له على الفورِ وأنا تائهُ النظرات : حقًّا إن شيخَك لرجلٌ مباركٌ !

فصاح « خير » فى إشراقٍ : ألم أقلْ لك ذلك ياسيدى ؟ ... ربما كفَتْ زيارةٌ واحدة، فإن لم تكفِ فإن زيارةً ثانيةً لا تدَعُ للألمِ موضِعاً ...

ولما بلَغْنا الدارَ وأخذتُ أخلَعُ ملابسى، تمثَّلَتْ لعينى صورةُ الشيخ

لا تبرح ... لقد رأيتُ هذا الوجهَ لاريبَ ... أين ؟ متى ؟ ... ومضيتُ أستذكِرُ ... أممكنٌ هذا؟ ... وما كادت تسنحُ الشبهةُ فى خاطِرى حتى أقبلتُ على أوراقى القديمةِ أُفتِّشُ عن مذكَّراتٍ كنتُ أُسجِّلُ فيها ما يَعْرِضُ لى فى عملى من حوادثَ ذاتِ شأن ...

واندفعتُ أقلِّبُ الأوراقَ وأقرأُ ، حتى عثَرْتُ على ضالَّتي ، فانكببْتُ أتفحَّصُ وأُدقِّق ، واستخرجتُ إضمامةً من الصُّوَر ، وسبحتْ عينى بين محتوياتِها حتى استقرَّتْ على صورةٍ لم ألبَثْ أن انتزعتُها من الإضمامة ، ورُحتُ أتأمَّلُ سِيماءَها فى جِدٍّ وتحقيق ، وأنا أُوازِنُ بينها وبين صورةِ شيخِ الزاوية ...

وطال تردادى بين تصفُّحِ الأوراقِ ومطالعةِ الصورةِ وعَرْضِ الذِّكْرياتِ وتَمَثُّلِ الشيخ في مجلِسِه ...!

وأمضيتُ أياماً لا يَفْتُرُ اهتمامى بهذا الأمر ، فرأيتُ أن أُبُثَّ العيونَ فى قريةِ « أبى العرائس » يستطلعون خبرَ الشيخ ويَسْبُرون غَوْرَه خُفْيةً . وكذلك أرسلتُ فى طلَبِ بعض مَلَفَّاتٍ من مديرية « أُسيوطَ » خاصةٍ بحادثِ « العصلوجىّ » أحدِ المُجرمين الذين اشتبكتُ معهم فى موقِعة داميةٍ منذ عَشْرِ سنوات ، كان من أثرِها أن اعتلَّتْ قدماى .

وسهِرتُ ليالىَ أُراجِعُ الأسانيدَ وأستمعُ إلى ما تأتينى به العيونُ من أنباءِ شيخِ الزاوية . وكنتُ كلما تعمَّقْتُ في البحث قَوِيَتْ ظنونى ، حتى أوشكَتْ أن تبلُغَ ذِرْوَةَ اليقين .

وكنتُ بين آنٍ وآنٍ أُسائلُ نفسى وأنا أستعيدُ فى مُخَيِّلَتى صورةَ الشيخ :

أحقٌّ أن وجهَه اختلَجَ بعضَ اختلاجاتٍ حين وقع بصرُه علىّ ؟

وترادفتِ الأيامُ ، فإذا بى أنتهِى في هذا الشأنِ إلى رأيٍ طِبْتُ به نفساً ، وذلك أن ولىَّ الله الشيخَ « الطشطوشىّ » وطريدَ العدالة « العصلوجىّ »

اسمانِ على مُسمّى واحد !

وكنتُ أعجبُ أشدَّ العجبِ كيف تسنَّى لذلك الجانى الأثيمِ الذى نشرَ الفزعَ والرُّعبَ حِقبةً مديدة فى قُرَى الصعيد أن يسخَرَ من عقولِ النـاس ؟ وكيف تيسَّرَ له أن يَفِـرَّ من موطِنِه ويأويَ إلى تلك القريةِ عَشْرَ سنوات طِوالا دون أن يفطِنَ إليه أحدٌ ، وقدغدا قِدّيساً يتوسَّط بين اللهِ وعبادِه يُدِرُّ عليهم الخيرَ والبركات ؟ ! ...

وضربتُ المائدةَ بيدى ، وقمتُ واقفاً ، وزَهْوُ الانتصارِ يتلألأُ فى عينىَّ ، وقد امتلأتُ غبطةً بأنى على وَشْكِ أن أضعَ يدِي على ذلك الأثيمِ الذى طالما نَشَدْته فى كلِّ مكانٍ ، وبذلتُ أقصى مجهودي فى هذه السبيلِ حتى كدتُ أُدْرِكُه ، ولـكنه أفْلَتَ ساخراً من يدي ، ولاذَ بالفِرار .

ودبَّرْتُ الخُطَّةَ التى أَبْلُغُ بها غايتى ...

وفى صُبْحِ يومِ الخميسِ أعددْتُ العُدَّةَ لأمرى ، وخرجتُ مُتَخفِّياً فى زِيِّ شيخٍ من مشايخِ البلاد ... فلقِيَنِي بالبابِ « خيرٌ » وقال لى :

يبدُو لى أنكَ غادٍ لاستـكمال شفائِكَ عند الشيخ ...

فقلتُ : الأمرُ كذلك ، وأرجو أن تـكونَ هـذه هى المرةَ الأخيرةَ التى أحتاجُ فيها إلى زِيارَتِه ...!

— ألا أُرَافِقُك ؟

— أُفضِّلُ أن أذهبَ وَحْدى ... لقد عَرَفْتُ الطريقَ ياخير !

وصَعِدْتُ فى السيارةِ قاصداً « كَفْرَ صقر » ، فلما وافيتُها رَكِبْتُ مَطِيَّةً إلى قريةِ « أبى العرائس » فبلغْتُ الزاويةَ فى رَوْنَقِ الضُّحا ، وحَثَثْتُ خُطايَ نحو المَبْنَى الأَبْيضِ حولَه شُجَيْرَاتُه العِجَاف ، وتبيَّنتُ عيونى منبثين فى أرجاءِ البُقْعةِ مندسِّين فى غِمارِ الزُّوَّار ... ودنا منى مُلاحِظ الشُّرطَةِ فى لَبُوسِ التَّنكُّر ،

وهو يهمس قائلا :

كلُّ شيء مُعَدٌّ ... ثِقْ أن غريمَ العدالةِ لن يجدَ طريقاً إلى الخلاص !

فألقيتُ إليه ببعضِ أوامِري ، فانصرفَ عني . وتحسَّستُ مُسدَّسي لأتحقَّقَ منه في مستقرِّه ... وكانت الزاويةُ على المألوفِ تموجُ بالمُريدينَ والأتباع ، أفواجٌ تذهبُ وأفواجٌ تثوب . فمرَقْتُ داخلَ الزاويةِ ، واتخذتُ مكاني غيرَ بعيدٍ من الباب أرقُبُ الشيخَ دون أن تقعَ عينُه عليّ ، وهو على مَصْطبتِه مَهيبُ الطلعةِ تحفُّ به جلالةٌ ووَقار ، وأطلْتُ التحديقَ فيه أُحْصِي عليه حركاتِه ، وأتفحَّصُ سِماتِه ، وعجبتُ كيف اكتسبَ ذلك الإنسانُ الأثيمُ هذا الطابَعَ الرائعَ من التُّقَى والوَرَع ، ومن أين له هذه الهالةُ من الخشوعِ والمَهابة ؟ إني لأكادُ أُنكِرُ يقيني وأُكَذّب عيني فيما أعرِفُه من شأنِ هذا الجبَّارِ العنيدِ الذي أعيا رجالَ الأمْنِ خُبثًا وشرًّا ...

لقد كانت عيونُ الناسِ محيطةً به كأنما شُدَّت إليه بأمراس ، تستلْهِمُ منه الراحةَ والطمأنينةَ ، وإنه ليتلقَّاهم بنظراتِه التي تُشعُّ رحمةً وحنانًا ، ويُغدِقُ عليهم أحاديثَه التي تَقْطر وَداعة وطِيبةً وإخلاصا ! ...

هاهو ذا لا يكاد يَمسُّ بأناملِه مكلوماً يَئِنُّ من فرْطِ آلامِه حتى يعودَ ذلك المكلومُ شخصاً تفتَّحتْ الدنيا أمامَ ناظِرَيْه في نَضْرَةٍ وإشراق ... وهأنذا كلما تلفتُّ حواليَّ هالَتني دموعُ السرور والاغتباطِ تَفيضُ بها عيونُ الأمهاتِ وهنَّ يَضْمُمْنَ إلى صدورِهنَّ فلَذاتِ أكبادِهنَّ التي نالت من نفحاتِ الشيخِ نعمةَ الشِّفاء ! ...

لقد أحسستُ أن كلَّ قلب في هذه البقعةِ يخفُقُ بالحبِّ والولاء ، ويَدينُ بالفضلِ وإسداءِ الجميلِ لذلك الشيخِ الصالحِ الذي يمثِّلُ الخيرَ المحضَ في صَومعتِه المنعزلةِ عن عالَمِ الشُّرورِ والآثامِ ... أفي مَكِنَة امرئٍ أن يرتابَ لحظةً

فى صِدْقِ طَوِيَّتِهِ هذا الرجلِ ونقاءِ سَرِيرتِه ؟ !

وأزِفَ وقتُ العمل المُدَبَّر ... فكان علىَّ أن أدنوَ من الشيخ لأحْظَى منه بِرُقْيةٍ تَشْفِى قدمىّ ، على حين يقفُ ملاحظُ الشُّرْطةِ خلفَ الشيخِ فينقضُّ عليه وهو يتمتم برُقْيتِه حين أُرسِلُ بيدى إشارةً خاصةً اتفقنا عليها ...

وتقدمتُ بِضعَ خُطوات ، ثم وجدتُنى أتوقف ... ثم استأنفتُ سيْرى ، وكانت خُطواتى ثِقالا وئيدةً ، وكنتُ أُرَدِّدُ الطَّرْفَ حولى تطالِعُنى دائمًا تلك الوجوهُ الآمنةُ المطمئنَّةُ ، وتلك الثغورُ الباسمةُ المستبشرةُ ، وتلك النفوسُ الوادعةُ المستقِرَّة ، فإذا بخُطاى تزدادُ تثاقُلًا ...

وألفيتُنِى بعد فترةٍ قُبالةَ الشيخ ، وهو ينظر إلىَّ فى هدوء ، وقد ارتسمتْ على فِيهِ ابتسامةٌ لاتخلو من غموض .

وطالت وَقْفتى ، وأنا حيرانُ الفكرِ ، مشتَّتُ الخاطِرِ ، تغتالُنى الشكوك ... ولَمحتُ الملاحِظَ يستعجِلُنى فى إنجازِ مُهِمَّتِه .

وسمعتُ الشيخَ يقول بنَغْمتِه الراتبةِ ذاتِ الغُنَّةِ العَذْبة : تقدَّمْ ... تقدم ...

فشخَصْتُ إليـه بعينىَّ ، وتلاقتْ نظراتُنا وقتًا ... ثم أحسستُ بنفسى أَغضُّ من بصرى ... وسمعتُه يقول : تقدَّمْ ... شفاؤكَ مكفولٌ بإذنِ الله !

وجلستُ أمامَه ، فانطلق يتمتم برُقْيتِه ، ويدُه تُلوِّحُ على قدمى .

ومكثْتُ مُطرِقَ الرأسِ ، خافضَ البصر ، غريقًا فى أخيلةٍ غريبة كأننى فى غمرةِ الأحلام ، أُسائلُ نفسى :

كيف يكونُ حالُ هذه القريةِ السعيدةِ بعد أن يرحَلَ عنها ولِيُّها الطَّيِّبُ ؟ !

وما إن فرَغَ الشيخُ من رُقْيتِه ، حتى وجدتُنِى أُخْرِجُ من جيبى قطعةَ النقودِ ، وأدُسُّها تحت منديلِه المبسوطِ كما فعلتُ أولَ مرةٍ . ونهضتُ عن مجلِسِه متخذًا طريقى إلى الباب . وما كدتُ أصلُ إليـه حتى شعرتُ بيدٍ تجتذِبُنى ،

وإذا بالملاحِظِ يهمِسُ في أُذُنى ملهوفَ النظرات :

ماذا جرى ؟ ماذا جَدَّ فى الأمر ؟

فقلتُ له ، وأنا أنظُرُ أمامى نظراتٍ شاردةً :

خفِّف من حِدَّتِكَ ... الأمرُ يتطلَّبُ التريُّثَ !

وبدأنا سيرنا ، والملاحظُ تضطربُ زَمجَرَتُه المكبوتةُ على شفتيْه ، فسمعتُه يقولُ بعد خُطواتٍ : هذا المجرِم ! ... هذا المحتال ! ... كيف نُمهِلُه ؟ !

فأمسكتُ بيدِه ، وقد قارَبْنا رِبَاطَ المَطايا ، وقلتُ :

أشعُر بأننا كنا على وَشْكِ أن نقعَ فى خطإٍ جَسِيم ...

— كيف ؟ ... كيف ؟

فضغَطْتُ يدَه ، وقلتُ : سأشرَحُ لك الأمرَ جلِيًّا ...

وفطَنْتُ فى هذه اللحظةِ إلى شيءٍ راعَنى حتى أذهلَنى ...

إنى أسيرُ على قدمَىَّ دون أن أجِدَ ذلك الألمَ الذى لازَمنى عشر سنوات ... يالَلّهِ ! ... كيف فاجأنى هذا الشِّفاء ؟ !

وأردتُ أن أستوثِقَ ، فجعلتُ أغدُو وأروح سريعَ الحركة ، أضْرِبُ الأرضَ فى مَسيرى ، فما وجدتُ للألمِ من أثَر ! ...

وكان الملاحِظُ ينظُرُ إلىَّ حائراً يستبدُّ به العجَبُ ، فألقيتُ يدى على كَتِفِه ، وقد تطلقتْ أساريرُ وجهى ، وفاضتْ بالبِشْرِ عيناىَ ، وقلتُ له في اهْتِياجٍ :

اُنظرْ ... لقد نِلْتُ من بركةِ الشيخ أوْفَرَ نصيب !

كلبُ أسعد بك

حينما كنتُ طالباً فى مدرسةِ الزِّراعةِ بـ « الجيزة » كنتُ أترددُ فى أوقاتِ فَراغى على قهوةٍ صغيرةٍ بالقربِ من الشارعِ العامِّ يتراءى بجوارِها جدولٌ صغيرٌ وتتهدّلُ فوقَها أغصانُ شجرةٍ عتيقة . وكنتُ أعُدُّها حَلْقَةَ الاتِّصال بين الحَضَرِ والرِّيفِ ، أو بين المدنيَّةِ المزخرفةِ والحياةِ الفِطْريَّة . فبينما تكونُ جالساً فى مَقْعدكَ الساذَجِ تشرَبُ القهوةَ فى هُدوء ، وتُصغِى إلى خَريرِ الماء ، وتتملَّى منظرَ النباتِ ، إذْ يصطدِمُ سمعُك بدَوِىِّ ترامٍ ، أو يُفْعَمُ أنفُكَ بدُخانِ سيَّارة .

وكان يتردّدُ على هذه القهوةِ رجلٌ كبيرُ الجسم كُرَوِيُّ الوجه بأنفٍ أفْطَسَ وعينيْن صغيرتيْن ، وكنتُ ألاحِظ عليه مظاهِرَ البؤسِ فاعتقدتُ أنه من ذَوِى المعاشِ الفقراء . وأذكرُ أننى ماذهبت مرةً إلى القهوةِ إلا وجدتُه . أراه دائماً فى ركنِه المعهودِ بجوارِ الباب منتفخاً فى جِلْسَتِه ، يُرْسِلُ على كتِفيه شَمْلَة بالية ، بين يديه القهوةُ يَشرَبُها والنارجيلةُ يُدَخِّنُها ، ولا يفتأُ يَصيحُ فى الفَتْرةِ بعد الفترة بالخادمِ يُصْدِرُ إليه أوامِرَه . وكان لا يُرَى إلا مُصْطَحِباً كلباً أَسْوَدَ بَشِعَ الهيئةِ من فصيلةِ الأَرْمَنْت ، يُزْعِجُ القهوةَ بنُباحِه الثقيل ، وكان سيِّدُه يبالِغُ فى تدليلِه والاعتناءِ به ، ويخاطِبُه ببعض كلماتٍ إنجليزيةٍ بلهجةٍ سقيمةٍ لاتتعدّى قولَه : « كام هير جيمى . كام هير ماى دير ... ! [1] »

---

(١) تعال هنا ياجيمى . تعال هنا ياعزيزى !

وكان يُلزِمُ غلامَ القهوة أن يُحضِرَ للكلب الماءَ فى صَحْفةٍ من الصِّحاف النظيفة ، ويَجمعُ هو بنفسِه بقايا الطعامِ مما يأكل رُوَّادُ القهوة ، ويقدِّمُها لحيوانِه غيرَ مبالٍ باشمئزازِ الناسِ وامتعاضِ صاحب القهوة .

*

وذهبتُ مرةً إلى القهوة فوجدتُ « عويس » ماسحَ الأحذية يتشاحَن معه . وكان الرجلُ يَشْتُم الغلامَ بصوتِه العريضِ الوَقِحِ ، وهو منتفخُ الأوداجِ مُحمَرُّ العينين يبصُق أمامه بَصَقاتٍ متواليةً . ورأيتُ الكلبَ ينبَحُ الغلامَ بشِدَّةٍ ويجذِبُ أطرافَ رِدَائه بأسنانِه ، فتلافيتُ التداخُلَ بينهما ، وقصدتُ إلى مكانى بجوارِ الجدولِ ومعى كتابُ الزراعةِ المصريَّةِ لأُذَاكِرَ فيه .

وجاء صاحبُ القهوةِ فَحَسَمَ الخلافَ وأنحَى على « عويس » وأرضى الأفندى ببعض كلماتٍ لاتخلو من تملُّق ، وتركَ الكلبُ ثوبَ الغلامِ ، وذهبَ إلى سيِّدِه ، فنظر إليه مليًّا وهو يهزُّ له ذَنَبَه ثم تمدَّدَ تحت قدمَيه ونام .

وجاءنى « عويس » حاملًا صُندوقَه على مألوفِ عادتِه ، فمددْتُ له قدَمَىَّ فى غير وعْيٍ . واشتغَلَ الغلامُ بالمَسْحِ ، وأنا غارقٌ فى التفكير . وبعدَ بُرهةٍ خاطبْتُ « عويس » ووجهى لايفارِقُ الكتابَ : من يكونُ ؟

فأجابنى وهو منهمكٌ فى عملِه : طبيبٌ لا هنا ولا هنالك ؛ يَدَّعى أنه كان رئيسَ الأطبَّاءِ فى الجيشِ فى الزمنِ الماضى ...

— والآنَ ؟

— على المعاش ! ... تصوَّرْ يابك أنه يريدُ أن يُعْطِيَنى نصفَ قرشٍ نظيرَ مَسْحِ حِذائه ووضعِ رباطٍ جديدٍ له . وأيُّ حذاءٍ هذا الذى أمسَحُه ؟ لاأراكَ اللهُ . أؤكِّدُ لك أن الطِّلاءَ لم يَمَسَّهُ منذ أن كان جنابُه فى الجيش !

ولاحظتُ على الرجلِ أنه يُسارِقُ النظرَ إلينا شَزْراً ...

فأردتُ أن أحوّلَ مجرَى الحديثِ ولكننى لم أستطعْ ، إذْ كان « عويس » قد اندفعَ يقولُ : نصفُ قرشٍ واحدٍ نظيرَ مسحةٍ ورباطٍ جديد؟! يُغنينى اللهُ ياسيدى !... هذا فوقَ الخدماتِ التى أُؤدّيها له دونَ مقابِل . ولو كان شخصاً فقيراً لقلنا نخدُمُه لوجْهِ الله ، ولكنه رجل كانِزٌ ، كانِزٌ بلا شكّ ...

وسمعْتُ الرجلَ يبصُق بشِدَّةٍ على الأرضِ ، فخفَّفَ « عويس » من حِدَّتِه وهمس قائلا :

صـدِّقْ بالله إنك لو ذهبتَ إلى بيتِه لظننتَ نفسَك فى مَزْبلَةٍ أوحظِيرةِ بهائمَ . لِمَ كلُّ هذا والدنيا آخِرَتُها موت ؟ إذا لم يُمتِّعِ الإنسانُ نفسَه فى دنيـاه فما فائدةُ جمعِـه للمـالِ ؟! دعْنا ياسـيدى ولْنغلِقْ بابَ هذه السِّيرةِ ... !

*

وانقطعتُ عن القهوة بضعةَ أيام ، وبينما كنتُ مرةً فى الترامِ مُنْهمِكاً فى قراءةِ « المُصوَّر » إذْ شعرتُ بشخصٍ يدخُل العربةَ ـ وكانت مزدحمةً بالرُّكابِ ـ ويَحْشُرُ نفسَه بين الجالِسين . وسمعتُ همهمةَ اسْتِياءٍ فى كلّ ناحية . ورفعتُ رأسى لأرى مَنِ الداخل ، فوقع بصرى أولَ وَهْلةٍ على كلبٍ أسودَ ضخمٍ بشِعِ الهيئةِ عرفْتُه على الأثر . ورأيت أمامَ مقعَـدى رئيسَ الأطبَّاء يمسَح وجهَه المحتقِنَ المعقَدَ ويجذِبُ الشَّمْلة على كتِفيه ، ويدفع جارَه وهو يغَمْغِم ويبرطِمُ . وتلاقَتْ أعيننا ، وشعَرتُ بأنى أَبْتَسِم له . وشاهدتُه يُحيِّينى مجاملةً بابتسامةٍ خاطِفَة . وبعد لَحَظاتٍ قال لى مُنْدَفِعاً :

ـ يدفَعُ الواحدُ منا ستةَ مِلّيماتٍ لهذه الشركةِ الملعونةِ ليَحْظى بمثلِ هـذه الجِلسةِ المُرهِقة . أآدميُّون نحنُ أم بهائم ؟ أهكذا يحشُرونَنا كأنَّنا فى عربةِ حيوانات ؟ لمـاذا لايزيدونَ عربَةً على كلِّ قطار فى مثلِ هذه الأوقات ؟ أُقسم بالله إنّ « سوارس » الذى كنا ندفَع فيه ثلاثةَ مِلّيمات أحسنُ ألفَ مرةٍ من هذا الترامِ !

فوافقته ، وأخـذتُ أنْعى على الشَّركةِ هـذا الإهمالَ ، فظهر على وجْهِهِ الارْتياحُ ، وانطلقَ يُناقِلُنى الحديثَ بلهجة وُدِّيَّة بلا تـكلّف ، كأنه يَعرِفُنى منذُ أعوامٍ ، وقال : لم تحضُرْ إلى القهوةِ منذ أيامٍ .

— كنتُ مشغولا جدًّا . لقد كبَستْ علينا الدُّروس .

— والله يا بُنَيَّ لو كنتَ معنا فى الجيشِ لاستصغَرْتَ شأنَ مايشغَلكَ ... كنتُ لا أجدُ الوقتَ الـكافىَ لأتناولَ كوبَ اللبنِ فى الصباح !

— أخَدَمْتَ فى الجيشِ مدةً طويلة ؟

فأجاب بلهجةٍ متّزِنةٍ ، وهو يَعبثُ بسلسلةِ ساعتِه :

خدمتُ خمساً وأربعينَ سنةً ... خمساً وأربعينَ سنةً ، وأنا أعيشُ فى الخيامِ وعلى صهواتِ الجيادِ ، أُضمِدُ الجَرْحى وأُعْنَى بالمُصابين ، ثم أُخْرُجُ بعد هذه الخِدمةِ الطويلةِ العريضةِ الشاقَّةِ بمعاشٍ لا هو في العِيرِ ولا فى النَّفيرِ . لامكافأةَ ولا جزاءَ !

ثم مالَ علىَّ وهو يبتسِمُ وقال :

ألم تسمع المَثلَ القائلَ : آخِرُ خِـدْمةِ الغزِّ علقةٌ ؟

وكان قد خلا مكانٌ بجوارِه ، فنظر إلى كلبِه القابعِ تحت قدميْه ، وقال له وهو يُفرقِعُ إصبعَه : كام هير جيمى ، كام هير ماى دير !

وأشار له إلى المحلِّ الخالى ، فنهض الـكلبُ ، وبعد أن تمطَّى وتثاءبَ فى هيئةٍ شنيعةٍ قفزَ بجوارِ سيِّده والناسُ ترمُقُه بنظراتِ غَضْبَى . والتفتَ إلىَّ طبيبُ الجيشِ وقال وهو يُلاطِفُ كلبَه : لم أرَ فى حياتى كلباً وفِيًّا كجيمى هذا ... إنه إنسانٌ وليس بحيوان . لقد استعَضْتُ به عن البنين فهو ابنى ، وعن الخدمِ فهو تابِعى الأمين ، وعن الحُرَّاسِ فهو حارسى الذى يَبْذُلُ دمَه في سبيلي . أتُصدِّقُ أننى لا أُعاشِرُ فى منزِلى سواهُ ... ؟ !

ثم نظر إلى كلبه وقال : اوه جيمى أى لاف يوفرى ماتش [1] !

وكان بجوارِه شيخٌ معمَّمٌ مستغرِقٌ فى تسبيحه ، فأحسَّ جسمَ الحيوان يَلمِسُ جُبَّتَه ، فاستيقظ فى رِعدةٍ ، والتفتَ من فورِه . فما إن وقَع بصرُه على الكلبِ حتى وثب غاضباً يلعَنُ ويَسُبّ . وتناول عصاه فدفَع بها الكلبَ يريدُ أن يُرْغِمَه على تركِ المكان ، فرماه « أسعد بك » بنظرةٍ ملتهبة وقال ، وقد احتقَنَ وجهُه وانتفخ : ماذا تريدُ من الكلبِ ؟

— يجب أن تُنْزِلَه عن المقعد !

— أُنزِله عن المقعد ... ؟ !

— إن مكانَه ليس هنا ...

— ومَن حضرتُك حتى تُلقِيَ هذه الأوامرَ على الناسِ ؟ !

— الكلبُ نجِس ، وأنا رجلٌ متديِّنٌ ، فيجب إنزالُه ...

— لقد دفَعتُ ستةَ مليماتٍ لأَرْكَبَ أنا وكلبى ، فلا يستطيعُ أحدٌ إنزالَه .

— إذن أنا أتولَّى ذلك !

ورفع الشيخُ عصاه يريد أن يَهْوِيَ بها على الكلب ، فأسرعَ « أسعد بك » ونزعَها منه ، ثم ألقَى بها فى الطريقِ والترامُ سائر . وسَرعانَ ما رأينا الرجليْن قد اشتبكا فى مشاجرةٍ عنيفةٍ اشترك الكلبُ فيها ، فانطلق يعَضُّ قدمَ الشيخِ ويمزِّق جُبَّتَه . وتألَّبَ الرُّكَّابُ معى على الرَّجليْن نحاولُ التفريقَ بينهما ... ثم وقف الترامُ ومضى عاملُ التذاكِر يستدعِى الشُّرطىَّ ...

*

وتواصلت الأيامُ ، وكثُرتْ مُلاقاتى لـ « أسعد بك » فى القهوةِ ، وتوثَّقَتْ بينى وبينه وشائجُ الصداقة . واتَّضح لى أنه شخصٌ غيرُ مُضايِقٍ كما

(١) أوه ياجيمى . . . أنا أحبك كثيراً جدا . . .

توهمتُ من قبلُ، فكان إذا رآنى في ركنى المعهودِ، مكبًّا على كتابى أذاكرُ درسى، احترم عملى ولم يفتحْ فمَه بكلمةٍ معى. أما إذا لاحظَ أنى لاعملَ لى دعانى للجلوسِ معه. ولا أذكرُ أنه أكرمَنى بقدح قهوةٍ أو قدَّمَ لى لفافةً واحدة. أما حديثُه فكان على سخافتِه مسلّيًا. معظمُه حكاياتٌ عن حياتِه الماضيةِ فى الجيشِ ونوادرُ عن كلبِه لاتخلو طبعاً من مبالغاتٍ ومغالطات. وكان إذا بدأَ حديثَ الكلب لمعتْ عيناه بوميضٍ غريب، وخيِّلَ لكَ أنه يتكلمُ عن ابنٍ وحيدٍ له قد وهبَه موفورَ محبتِه وحنانِه!

*

وتخلَّفْتُ بضعةَ أيام عن القهوةِ ثم عُدْتُ إليها، فكان أولَ شيء لاحظتُه هو أن «أسعد بك» غيرُ موجود، ولما جاءنى الخادمُ بالقهوة سألتُه عنه فلم يُفِدْنى بشىء. وبعدَ قليلٍ ظهر «عويس» ماسحُ الأحذية، وكان مسروراً يَضرِبُ صُندوقَه الخشبىّ، فسألتُه: ما الخبرُ؟

— خبرٌ عظيمٌ جدًّا... أخذوا كلب أسعد بك فى عربةِ الكلاب...

— ياشيخ... !

— شاهدتُ ذلك بعينَىْ رأسى!

ونالنى شىءٌ من الأسف، ولكنى لم أُعِرِ الأمرَ كبيرَ اهتمام. واعتقدتُ أننى سأرَى فى غدٍ صديقى وكلبَه يحتلَّانِ ركنَهما المختارَ.

وبعد فترةِ انقطاعٍ ذهبتُ إلى القهوة، فوجدتُ «أسعد بك». ودُرْتُ بعينى أبحَثُ عن الكلبِ فلم أجدْه. وكانت عينا صديقى مُربَدَّتيْن حائرتيْن ووجهُه محتقنًا. وحيَّيْتُه فردَّ علىَّ فى اقتضابٍ وصَمت، فلم أشأْ أن أُثقِلَ عليه، وقصدتُ إلى مكانى وفتحْتُ كتابى وبدأتُ دِراستى. ولكننى ما كدتُ أفعل حتى سمِعْتُه يتكلمُ فى لهجةٍ شَرِسةٍ كأنه يتحدَّى إنسانًا أمامَه قائلا:

يأخذون الـكلبَ ويطلبونَ منى جنيها نظيرَ إطلاقِ سَرَاحِه ؟ جنيها ؟ هذا احتيال . هذا نهب ... ما أَسْوأَ هذه المصلحةَ !

وبَصق بَصْقةً كبيرةً ، ثم أتمَّ كلامَه :

... مع أنى أفهمْتهم أنى طبيب ... بل رئيسُ أطباءِ الفرقة التاسعة التى قهرَتِ العُصاةَ فى الأَبيّضِ ودارْفُورَ ... رجلٌ مقامى معروف ، وماضىَّ مُفْعَمٌ بجلائلِ الأعمال ... مصلحةٌ رديئةٌ لاتعرِفُ أصحابَ المَقاماتِ . بُعْداً لها !

وأرسل بَصْقةً أخرى . وكان يتكلمُ دون أن يلتفِتَ ناحيتى . ولـكنى كنتُ متأكّداً أن الـكلامَ مُوَجَّهٌ إلىّ ، إذْ لم يكن فى القهوةِ سوانا . فرأيتُ من بابِ المجاملةِ أن أُعِيرَ حديثَه اهتمامى ، وقلت :

جميعُ المصالح مُخْتَـلّة ...

فاحتدَّ فى كلامِه وهو ينظُرُ أمامَه دائما ، وقال : إلّا هذه المصلحةَ ... إنها ليست مختَلّةً فقط . إنهـا غيرُ موجودةٍ . أَتصدّقُ أنهم يرفُضون شهادتى الرسميةَ بأن جيمى غيرُ مسعور ، وأنه ليس من الـكلاب الضَّالّة ، ويقولون إن الإجراءاتِ يجبُ أن تأخذَ مجْراها ... إجراءات ؟ سأُرِيهِمْ كيف تُتَخَذُ أمثالُ هذه الإجراءاتِ معى ومع كابى ... سأُرِيهم ... !

وضرب بشِدَّةٍ على المـائدة ، والتفَتَ إلىّ هـذه المرةَ وعيناه ترْميانِ بالشَّرَر ، وقال :

لقد أرسلتُ إلى وزيرِ الحربيَّةِ اليومَ عريضةً لإخلاءِ سبيلِ كابى فى الحالِ ...

فأجبتُه على الأثر : حسناً فعلْتَ !

*

وفى غَـدٍ سافرْتُ مع لَفيفٍ من طلبةِ المدرسةِ فى رِحْلةٍ إلى الصعيد . وقَضَيْنا هنالِكَ أُسبوعًا كامِلا نتنقّلُ بين رُبوعِه مُتفرّجين ، نرى آثارَه العظيمةَ .

وفي اليومِ التالي لعودتى إلى القاهرةِ . قصدْتُ إلى قهوتى المعروفةِ ، فرأيتُ « عويسَ » جالساً القرْفُصاءَ على الأرضِ بجوارِ إحدَى الموائدِ وأمامَه صُندُوقه ينتظرُ الزُّوّادَ . فناديتُه وسألتُه على الفورِ : ماذا جرَى لِـكَلْبِ أسعد بك ؟

فابتسمَ وقال : تَعيشُ أنتَ !

— قَتَلُوه ؟

— منذُ أربعةِ أيام !

— ألم يَدْفعْ أسعد بك المبلغَ ؟

— يدفعُ المبلغَ ؟! إنه يرْضَى أن يُعطيَهم عينَيْه ولا يرْضى أن يَدْفعَ لهم الجُنَيْه !

وشاهدتُ « أسعد بك » آتياً يَتوَكَّأُ على عصا غليظةٍ ويسيرُ فى ثِقَلٍ وإعياء . ولمَّا اقتربَ منى ابتسمَ لى ابتسامةً ضئيلةً ثم جلسَ ...

ولاحظْتُ على وجهِه شُحُوباً وامتقاعاً ، كأنه قريبُ العهْدِ بمرضٍ خَبيث ، وأشار إلى المَقْعدِ الذى أمامَه وقال : تفضَّلْ ... اِجْلِسْ !

وجلستُ . وبدأنا نَتحدَّثُ فى أُمورٍ تافِهَة . وكانتْ لهجتُه فاترةً ، ونظراته فيها بعضُ الشُّرُود . ولم يَنْطِقْ بكلمةٍ واحدةٍ عن « جيمى » فعلمتُ أنَهُ لا يُرِيدُ الخوْضَ فى هـذا الموضوع .

ثم خَيَّمَ علينا صمتٌ ثقيل فاستأْذَنْتُ وانْـكَفأْتُ إلى رُكْنى ...

ومنذُ ذلكَ الحينِ اختلفتْ مواعيدُ « أسـعد بك » ولم أَعُدْ أراه دائماً فى القهوةِ كلما ذهبتُ . وغَيَّرَ عادتَه فى طَلَبِ القهوةِ السوداءِ التى كان لا يَحيدُ عنها ولا يَزيدُ عليها ، واسْتبْدَلَ بها بِضْعَ كُئُوسٍ من العرَقِ . وكان كلما حَميَتْ الصَّهْباءُ فى رأسِه اندفعَ يَتكَلَّمُ فى إسهابٍ مُمِضّ وبصوتٍ مرتفِعٍ كأنه يَصْرُخ أو يَشْتُمْ ، وكانت مَوْضُوعاتُه دائماً لا تخْرُجُ عن سَبِّه مَصْلَحَةَ الطِّبِّ البيطرىّ وسبِّ العالمِ كلِّه معها ، وكان يقولُ دائما : الدنيا كُلُّها نَهْبٌ في نَهْبْ !

وبدأ يَدْعُونِي إلى شُرْبِ الزَّبِيبِ معه، ويقولُ لي لا تخشَ ضرراً . أنا طبيبٌ .
إن الزبيبَ مُقوٍّ للدم ومثيرٌ للشَّهيَّة . أحسنُ الشرابِ كلِّه .

وأصبحَ مجلسُ « أسعد بك » لا يُطاقُ ، فلم أكنْ أنعمُ معه بتلك الأحاديثِ العِذَابِ التي كنتُ أجِدُ فيها سَلْوَتِي . ولم يكن يَتْرُكُنِي أُذاكِرُ دروسي في هدوء ، بل كان دائماً يُقْلِقُنِي بصَخَبِه المُزْعِجِ ويَضْطَرُّنِي إلى الإنصاتِ له وتحبيذِ كلامِه . وكان إذا رآني مقصراً في الالْتفاتِ إليه جاء إلى مائدتي ونقلَ شرابَه عليها ، واحتلَّ مقعداً بجواري ، وبدأ يَصُبُّ سَيْلَ شِكَايَاتِه من الحوادث وشتائِمِه للناس .

وحدثَ مرَّةً أن جاءَهُ صاحِبُ القهوةِ بحسابِ الشَّهرِ ـ وكان من عادةِ « أسعد بك » أن يدفعَ الحسابَ جُمْلَةً في رأسِ كلِّ شَهْرٍ ـ فأخذ الوَرَقَةَ من يدِ الرجل ، وألقَى عليها نَظْرَةً عابِسَةً ، ثم صاحَ في وَجْهِهِ :

مائةُ قرش؟ ... جنيه ؟ ... هذه لُصُوصِيَّة ... لن أَدْفعَ هذا المَبْلَغَ ما حَيِيتُ !

ودَعَكَ الوَرَقَةَ ورماها في وَجْهِ صاحبِ القهوة ، وأرادَ الرجلُ أن يتفاهمَ معه في لُطْف ، فاقتربَ منه ومعه ورقةُ الحسابِ ، وأخذ يُوَضِّحُ له عددَ الطَّلِبَاتِ التي طَلَبها ، فدفعَه « أسعد بك » بِشِدَّةٍ ، وصاح فِيه :

اِذْهبْ من أمامي . لن أدفعَ شيئاً . كُلُّكم لُصُوصٌ صَعَالِيكُ ...

فاحْمَرَّتْ عينا صاحبِ القهوةِ ، وقال له :

اللُّصُوصُ والصعاليكُ هم الذين لا يَدْفَعُونَ ما عَلَيْهِم !

— اِخرَسْ ! ... أتعرِفُ من الذي تُكَلِّمُه ؟ أنا أسعد بك الذي كان كبيرَ أطِبَّاءِ الفرقةِ التاسعةِ في الجَيْشِ المِصْرِيِّ !

— وماذا يَهُمُّ ؟ أنا أريدُ نقودِي ، ليس هذا الجُنَيْهُ كجنيهِ مصلحةِ الطِّبِّ البَيْطَرِيِّ الذي لم تدفَعْه إنقاذاً لكلبِك . هذا جنيهٌ ثَمَنُ طَلِبَاتٍ شَرِبْتَها من مَحَلِّي !

ورأيتُ سَحنَةَ « أسعد بك » قد انقلبَتْ فأصبحتْ كسَحْنةِ النَّمِرِ الهائجِ وقال وصوتُه يرتجفُ : ماذا تقولُ ياوَقِحُ ؟ جنيـهُ الطِّبِ البيْطريِّ ؟ جنيهُ الـكلبِ ؟ أتظُنُّ أنى تخلّيتُ بالجنيه فى سبيلِ إنقاذِ كلبى ؟ ! أتجرُؤُ على هذا القولِ يالَعينُ ؟ أنا أرضى أن أدفعَ مائةَ جنيه لاجنيهًا واحدًا من أجلِهِ . ولـكننى لاأدفعُ مِلِّيما ، نكايةً فى المصلحة !

ورأيتُه يدُسُّ يدَه المُرتجفةَ فى جَيبِه ، ويُخرِجُ ورقةً ماليَّةً ذاتَ مائةِ قرشٍ ، وينهالُ عليها تمزيقًا ، ويقولُ :

أتستطيعُ أن تقولَ إنه ليس فى مقدورى أن أدفعَ جنيهًا ؟ !

ثم قام وأنْشَبَ أظفارَه فى رَقَبة الرجلِ ، وقامت بين كِلَيْهما معركةٌ استدْعِيَ من أجلِها رجالُ الشُّرْطة ... !

*

وساءت أحوالُ « أسعد بك » ... فلم أعُـدْ أراه إلا مخموراً رثَّ الهيئة ممزَّقَ الثيابِ ، قويَّ الشَّبه بالمُشَرَّدين من مُدْمِنى المخدِّراتِ الذين نراهم فى الطريقِ يَسْتجْدونَ المارَّةَ . وكان لسانُه لايسكُت عن حديث النقود وبخاصةٍ الجنيهُ الذى لم يدْفَعْه إنقاذاً لـكَلْبِه . وكان يُؤكِّدُ لى فى حماسٍ غريب أنه لم يدفَعْ هـذا الُجنيهَ نِكايةً فى مصلحةِ الطبِّ البَيْطرىِّ ، ولِيُفهِمَهم أنه ليس مُغَفَّلا . وكان يَرْوِى الحـكايَةَ لـكل من يقَعُ عليه بصرُه فى القهوةِ أوْ فى الطريق ، وهو يُهَدِّد ويَشْتُمُ ، وإذا لم يَجِدْ من يُـكلِّمُه راح يُحدِّثُ نفسَه مُحتدًّا وهو يُلوِّحُ بيدِه بحركاتٍ شاذّة .

وانقلبَ من شَحِيحٍ متكالِبٍ على المالِ إلى مُسْرفٍ مِتلافٍ يُنْفِقُ ذاتَ اليمين وذاتَ الشِّمالِ . وسمعتُ أنه كثيراً مايذهبُ إلى مصلحةِ الطِّبِّ البيطرِيِّ ليُطْعِمَ الـكلابَ الضَّالَّة ، ويُخْرِجَ لهـا رُخصاً بمبالغَ لايُستهانُ بها .

وكان يحرِّضنى دائماً على التبذيرِ ، ويقول :

أَنْفِقْ مامعك ، وابْسُطْ نفسك ... دنيا لاتستحقُّ الاهتمام ... !

*

وحلّت الإجازةُ السنويَّة ، وانقطعتُ عن زيارةِ القهوةِ ثلاثةَ أشهر كاملة ، ولما عُدْتُ إليها رأيتُ كلَّ شيءٍ فيها لم يتغيَّرْ . وكانت منضدتى المختارةُ فى موضِعِها بجوارِ الجدولِ تُظَلِّلُها أفنانُ الشجرةِ العتيقةِ ، فكأننى لم أُفارقْها إلا منذُ ثلاثةِ أيام ... واستقبلتْنى الوجوهُ التى أعرِفُها ، كلٌّ بابتسامتِه الخاصّة .

والتفتُّ حولى وأنا مُشْرِقُ الوجهِ ، أتصفَّحُ الذِّكْريات ...

وبَغْتةً أَظَلَّت نفسى غمامةٌ ، وقلتُ على الفور لـ « عويس » الذى كان يمسحُ مقعَدى فى ضجَّةٍ وسرور ويُهيِّئُ أدواتِه لمسْحِ حذائى : أين أسعد بك ؟

فتوقَّفَ عن عملِه ، ورفعَ بصرَه إلىّ ، وقد غاضت ابتسامتُه وانقطع ضجيجُه ، وقال بلهجةٍ حزينةٍ مُوحِشة : ألم تسمعْ عنه شيئاً ؟ !

— كلاَّ ... !

— لقد أرسلوه إلى المارستان . كانت حالتُه فى المدَّةِ الأخيرة عِبْرةً . وكنتُ أنا الذى أَعْتَنى به ... !

— ماهذا الكلامُ ؟

— الحقيقةُ ما أَرْوِيهِ لكَ ...

— وهل يُمكِنُنى أن أزورَه فى المارستان ؟

فمدَّ « عويس » صُنْدوقَه تحتَ قدمى ، وبدأ يمسحُ متباطِئاً ، وقال فى لهجةِ استسلام : كلاَّ ياسيِّدى ... لن تراه ... !

ونكَّسَ رأسَه ... فنكَّسْتُ رأسى ، وقد فَطَنْتُ إلى ما رمى إليه ...

قبلة الساق

— يا وَلد يا عبده ... يا عبده الـكلب ... يا ملعون ... يا نَجِس !

كانتْ هـذه النِّداءاتُ تُصافِحُ أُذُنَ « عبده السَّهْتان » وهو مُتمدِّدٌ على الدَّكَّةِ الخشبيَّةِ المحطَّمةِ في حجرتِه القائمةِ بجوارِ البابِ كأنْهـا لِضِيقِها وحقارتِها كِنٌّ من أَكْنانِ الدَّجاجِ ... وكانت الساعةُ لم تـكدْ تبلغُ السادسةَ صباحاً .

ظلَّتْ هذه النِّداءاتُ تُداعِبُ أُذُنَه وهو في حالةٍ بينَ اليقَظةِ والنوم ، فـكانت تَصِلُ إلى موطِنِ السَّمْعِ من رَأْسِه ، كأنها حديثٌ تِلِفُونِيٌّ آتٍ من بعيد ، تَطْغى عليه ضَجَّةٌ صاخِبَة . فيحسَبُ نفسَه يُكلِّمُ أحدَ رُوَّادِ المَلْهى الذى يَعملُ فيه .

وكانت عَضلاتُ وجهِه تتقَلَّصُ وتختَلِجُ ، ، وشفتاه تضطَرِبانِ بغمغَماتٍ غامِضَة ، إذْ كان يَشْعُر في حالتِه تلكَ بأنه هو الذى يَصُبُّ جامَ غضبِه بذلكَ الشَّتْمِ والسِّبابِ .

وسُرْعانَ ما انقلبَ ذلك الحديثُ التِّلِفُونِيُّ في حُلمِه معْرَكةً حاميةَ الوَطِيس في فِناءِ المَلْهى . فرأى نفسَه يَصْرَعُ المُديرَ بلَـكْمَةٍ عَنيفة ، ويختَطِفُ إحدَى غِيدِ المَلْهى المُدَلَّهَةِ بحبِّه ... وفى أثناء تلك الرؤيا المضطربةِ كان يَتراءَى له بلا رابطةٍ ولا تمهيدٍ بين فترةٍ وفترةٍ وَجْـــهٌ عَبُوسٌ ذو ملامحَ ثائرة ، ذلك وجـهُ « الحاجةِ فاطِمَةَ » صاحبةِ المنزلِ الذى يَحتَلُّ فيه حُجْرةَ البوَّاب .

وازداد الصَّخبُ في قوةٍ وعُنفٍ ، فاهـتزَّ جسمُ « عبده السَّهْتان » اهتزازاً

شديداً ، وأخذ جفناه يتحركان ، ونهض برأسه وئيداً يتلفت حوله . ففطن إلى مكانه من الحجرة يحتل دكته المحطمة ... وراح يمسح عن وجهه العرق بكم قبائه الأبيض - لبوس العمل في الملهى - ورن النداء في هذه اللحظة ، فألفى نفسه يعتدل في دكته سريعاً ويجيب بصوت متحشرج : حاضر ...

— يا ولد يا عبده ... يا كلب ... يا غبي ... يا وخم ... يا نجس !

— حاضر ... حاضر ...

وقذف بآخر تثاؤبة من فمه ، وخلع آخر تمطية من كتفيه . ونهض مهرولاً بجسمه النحيل الضئيل وقامته القصيرة إلى مسكن « الحاجة فاطمة » المقابل لحجرته ، ولم ينس أن يطبع على فمه ابتسامة كريهة ، وصاح : صباح الخير يا ستي الحاجة .

ووقف على قيد خطوتين من الباب ، فهو يعرف مكانه لا يتعداه ، فليس له أن يبلغ الباب أو أن يمد عينيه إلى ما وراءه ... ولاح له من جانب الباب طيف « الحاجة فاطمة » وهي مرتدية البياض على مألوف عادتها ، ملثمة بالخمار الأبيض ينبسط على صدرها حتى يغطي يديها . وسمعها تقول :

أين كنت يا نجس ؟

ومد يده ليحييها في غير وعي ، ثم ما عتم أن ردها إلى جنبه ... إنه منذ التحق بالبيت شبه بواب ، لم يحدث أن لمست يده يدها الملففة أبداً في الخمار الأبيض ، خلال السنوات الخمس التي قضاها في خدمة البيت . ولطالما سمعها تقول :

تنح عني ... حاذر أن تنقض وضوئي !

ولما برزت له من جانب الباب ، سألها : أية خدمة تبغين ياستي الحاجة ؟

— ألا تعرف عملك يانجس ؟

وكان على الرغم من تكرار كلمة « نجس » على سمعه ، واعتياده أن يتلقاها من « الحاجة فاطمة » لايستطيع لها احتمالا ، بل يشعر بأنها ثقيلة

الوَطْأةِ على نفسِه ، فوقف يُجَمْجِمُ :

يافتّاحُ ياعليم ... كلَّ يومٍ نجس ... نجس !

— وهل أنتَ إلا كلبٌ نجس ؟ ما صَنْعَتُكَ ؟ ألستَ خادمَ مَرْقَصٍ مُلوَّث ؟ خادمَ مُوبقات ؟ خادمَ خمرٍ وتهتُّك ؟ تقضى أكثرَ ليلِكَ ساهراً غريقاً فى تلكَ البُؤْرَةِ الموبُوءَةِ ، فلا تصحُو من نوْمِكَ إلا بمَعْرَكَة ...

فرفع صوتَه قليلا ، وهو يُحَدِّقُ أمامَه تحدِيقاً تائِهاً ، وقال :

يا ستى ... هذا نَصِيبى ... هذا مَقْسومٌ لى ... نَجِس ... قَدَر ... إن كان هذا يَرُوقُكِ فأنا فى خدمَتِكِ ، وإلاَّ فاترُكِينى وشأنِى !

وكان مثلُ هذا الموقِفِ على شِدَّتِه ، وما يُتَوقَّعُ أن يَنْجُمَ عنه من حدوثِ كارثةٍ فاصِلَة ، ينتهِى دائماً إلى رِضاً ووِفَاق ... فترات صَمْتٍ ... تراجُعٍ من الجانبَيْن ... كلماتِ عَتْبٍ ومؤاخذةٍ رفيقة ... تبادُلِ ابتسامات متكلَّفَة ...

وإنما كان ينتهِى الموقفُ إلى هذه النتيجةِ المسالِمَة ، لأن كلاًّ منهما يجدُ نفسَه لا غَنَاءَ له عن صاحبِه ...

كان « عبده السهتان » الموظَّفُ الليلىّ بملْهَى « نُزْهَةِ الأرواح » يقضى أكبرَ نهارِه شِبْهَ بوّاب فى منزِلِ « الحاجةِ فاطمة » راضياً من هذا العمل بما يُصيبُ من بقايا الطَّعام ، ومن المغالطاتِ فى حسابِ ما يَشْتَريه لصاحبةِ المنزل ، ومما تُعْطِيه إياه « الحاجةُ » من أجرٍ شهرىّ . فأما حاجتُها إليه فلأنَّه حَلْقَةُ الاتِّصالِ بينها وبين العالَمِ الدُّنيويِّ لا تستطيعُ قضاءَ شىء بدونه . فهى مقيمةٌ وحدَها معتزلةَ الناسَ لا تَزُورُ ولا تُزَارُ ، ولا تُبارِحُ عَتَبَةَ الدارِ إلا مرةً واحدةً فى العامِ تنتقِلُ فيها إلى القطارِ فى طريقِها إلى حَجِّ بيتِ اللهِ الحَرَامِ ... فأما عَمَلُهَا فى ليلٍ أو نهارٍ فهو الصيامُ والقِيامُ والتعبُّدُ بالتلاوةِ والتسْبِيح ، لا تفتأُ ذاهبةً آيبةً بين مكانِ الوُضُوءِ وسَجَّادَةِ الصلاة ... وكلُّ ما يُشْعِرُ الجيرانَ بوجودِها هو قَعْقَعةُ القبقاب

وَحدَها حين تذهَبُ أو تؤُوب . وليس يعلمُ أحدٌ ماذا يدورُ فى مَسْكَنِها وعلى أيِّ نحوٍ يكونُ ، حتى إن « عبده السهتان » أقربَ المُقرَّبينَ إليها لا يستطيعُ أن يَعرِفَ من دخائِلِ هذا المَسْكَنِ كثيراً أو قليلا ... وقد أشرَفتْ « الحاجةُ فاطمةُ » على السِّتين ، تميلُ بشَرتُها إلى البياضِ ، مُكتنِزةُ الجسم ، تَسيرُ متئِدةَ الخُطا كأنها تَتخطَّر . وهى تُنفِقُ على نفسِها من كِراءِ منزلِها العتيق الذى تحتلُّ منه الطبقةَ الأُولى .

ومدَّت « الحاجةُ فاطمةُ » سَفَطاً إلى « عبده السهتان » فتناوله فى حَذر ، ووجَدَ فى قاعِه قِطَعاً من النقود ، ووقف يَتلقَّى مَطالِبَ السيدةِ من السُّوقِ ، ونصائحَها له أن يكونَ بَصيراً يقِظاً لا يَتغفَّلُها ولا يَدعُ الباعةَ تَتغفَّلُه ...

وخرج الرجلُ يَحمِلُ السَّفَط فى يمينِه ، وسار متباطِئَ الخَطْوِ والضيقُ آخِذٌ منه كلَّ مأخذ . واستقبلَ الشارعَ فما إن صادفَه عَمُودٌ من أعمدةِ المصابيحِ حتى وجد نفسَه يستنِدُ إليه ويُلقِي السَّفَط بجوارِه مُرخِياً لأفكارِه العِنان ... أخليقٌ هو بأن تُطلِقَ عليه « الحاجةُ فاطمةُ » لَقَبَ النَّجسِ ؟ ... الحقُّ أنه خادمٌ وَضيع فى مَلْهى غيرِ مُشرِّف تُعرَضُ فيه ألوانٌ من الفنِّ الرخيصِ للرَّقص والغِناءِ المبتذَلِ تنطوِى على تهتُّكٍ وإزْراءٍ بالفضيلة ... ما عملُه على وجهِ التخصيصِ ؟ إنه لا يستطيعُ له تحديداً ، فلا هو عاملٌ مخصَّصٌ للتِّلِفون ، ولا هو غُلامٌ مَقصَف ، ولا هو أحدُ عمَّالِ المسرَح . إنه لمفروض عليه أن يشترِكَ فى كلِّ شيء ولكنه في الواقِعِ لا يَعمَلُ شيئاً مَذكوراً . تارةً تَطلُبُ إليه إحدَى الغِيدِ أن يَستدعِيَ لها سيَّارة ومرةً يرغبُ إليه أحدُ رُوَّادِ الملهَى في شراءِ عُلبةٍ من لفائِفِ التبغ ، وآنا يُكلِّفه مُديرُ الملهَى نقلَ المقاعِدِ وترتيبَها على نحوٍ مرسوم . وهو مع كلِّ هذا سفيرُ الغرامِ بين المحبِّينَ يتنقَّلُ بين الموائِدِ حاملاً رسائِلَ شفوِيَّةً أو تحريريةً تتضمَّنُ أنباءَ المواعيدِ وتباريحَ الأشواق ... وطوراً يجِدُ نفسَه قد اندسَّ فى

مشاجَرةٍ ينصرُ فئةً على فئةٍ دون أن يُدْرِكَ لماذا يُناصِرُ أو يُعادِى ؟ وطالما خَرَجَ من هذه المشاجَراتِ مَشْجُوجَ الرأسِ دامِيَهُ ... إنه يعيشُ منذ أعْوامٍ فى هذا الملهَى المعطَّرِ دائماً بأريجِ المرأةِ الفوّاح ، الحافلِ دائماً بطيفِها اللألاء ، المتجاوبِ أبداً بصوتِها ضاحِكةً أو شادِيَةً أو عابِثَة ، المهتزّ أبداً بحركاتِها لاعبةً أو راقصةً أو مُتبَخْتِرَة ! ...

وتخايلتْ على وجهِه ابتسامةٌ بَلْهاءُ ، وهو فى وِقْفتِه بجوار عمودِ المصباح ، يَعْرِضُ فى مُخيِّلَتِه تلك المناظرَ الفاتنةَ لغانياتِ المَلْهَى . ولكن ما موقِفُه هو من ذلك كلِّه ؟ إنه ليس أكثرَ من دِعامةٍ من دعائمِ هذا المَلْهَى ، بل لعله أشدُّ ذِلّةً وبؤساً . إن الدِّعامة لتمرُّ بها المناظِرُ فلا تُحِسُّ لها دبيباً ولا تشعُرُ لها باستجابة . أما هو فتمرُّ به هذه المناظرُ فتُلْهِبُ قلبَه وتُثيرُ وِجْدانَه وتوقِظُ فيه شتّى الأحاسيس ، فتظلُّ تساوِرُه دون أن يجِدَ لها ما يَشْفِى الغليلَ ...
إنه ليذْكُرُ أن غانيةً طلبتْ إليه منذ يوميْن أن يأتىَ لها بمِعْطَفِها فجاءها به ، وكان وهو يحمِلُ هذا الرداءَ الأملسَ الناعمَ المُشْبَعَ بعبَقٍ مُسْكِرٍ كأنه يحمِلُ بين ذراعيْه صاحبتَه بجِسْمِها البَضِّ وشَعرِها الفينانِ ... ولما ناوَلَها إيّاه قالت له :
« أَصْلِحْ الحذاءَ في قدَمى ياعبده ... » فهبَطَ من فورِه على حذائها ، وأمسكَ بالقَدَمِ العاريةِ تموجُ بلونِها الوَرْدِيّ ، وجعل يُقلِّبُها وهو يرنو إلى أصابعِها اللامعةِ بخِضابِها الأُرْجُوانىّ . وسَبحتْ عيناه إلى السّاقِ البديعةِ المَلْساءِ . فسرَتِ الرِّعْشةُ فى يدِه ، وألفَى وجهَه يتدانى ، وفمَه يتحفزُ لِاخْتلاسِ قُبلةٍ من تلك المَفاتِنِ . وما كاد يَهُمُّ بذلك حتى أحسَّ بدَفْعةٍ في ظهرِه أَسْقطَتْه . وسمِع قائلا يقولُ له :
دَعِ الحذاءَ ياغبِىُّ ... أنتَ لا تُحْسِنُ مثلَ هذا ...

فتنحَّى « عبده السهتان » عن مكانِه ، وجثا الرجلُ يُصْلِحُ للغانيةِ وَضْعَ قدمِها فى الحذاءِ . ثم لمحَه وقد انتهبَ قبلةً مُترَعةً من ساقِها الرشيقة ... وأرسلَ

« عبده السهتانُ » من أعماقِ صدرِه زفرةً جيَّاشةً ... محظورٌ عليه أن يستمتعَ بمثلِ هذه القبلةِ على حينِ أنها ميسورةٌ لغيرِه من أمثالِ ذلك الرجلِ ... وصعّد بصرَه فيه فإذا هو « أبو النبايل بك » الشيخُ المتصابى الثَّرِىُّ الذى قضى أطيبَ عمرِه فى صلاحٍ واستقامة ، حتى أشرف على الستين ، فإذا بالشيطان يسوقُه فى مُعتركِ الشَّهوات ، فيتبذَّلُ ويَخلعُ ثوبَ الوَقار ...

إنه « أبو النبايل بك » ذلك الذى يختلفُ إلى المَلْهى كلَّ ليلة ولا يظهرُ فى ليلةٍ إلا بحُلَّةٍ قشيبة لم يظهرْ بها قبلُ . هو صاحبُ تلك المِحفظةِ السِّحْريَّةِ التى تخرُجُ منها الأوراقُ تِباعًا دون أن ينقطعَ لها فيض ، هو الذى إذا جلسَ إلى خِوَانِ الشراب تهافتتْ عليه أسرابُ الغوانى يَحُطْنَه بسواعِدِهِنَّ الرَّخصة ، وتتعالى حولَه أصواتُهن بالمَرحِ والدُّعابة ... على حينِ أنه هو « عبده السهتانَ » لاعملَ له إلا أن ينْظرَ ويتنهَّدَ !

واعتدلَ فى وِقفتِه بجوارِ عمودِ المصباحِ فى الشارع ، وقد أَيقظه من أخيلته صوتٌ انبعثَ من بُوقِ سيَّارةٍ تعدُو ، فأطارَ من رأسِه تلك الذِّكرياتِ المتداعيةَ ، وألقى نفسَه يُرْسِلُ فى الهواء بصقةً ، ويردِّدُ : « مكانٌ سَيِّءُ السمعةِ .. تهتُّك ... دَعارة ... قُبْحًا لتلك الحياة ! » ... إن « الحاجةَ فاطمة » لم تعْدُ الحقَّ حين وصَفتْه بأنه نجِسٌ قذِرٌ ما دام يَعملُ فى هذا المكان ... وطأطأَ رأسَه ، والتقط السَّفَط ، ثم انطلقَ إلى السوق ... وجاز فى طريقِه بقهوة ، فدخل فيها وألقى السَّفط ، وجلس يتناولُ فطورَه كوبًا من الشاى وجانبًا من الكعك . ثم أشعلَ لِفافةً ، وراح يَجذبُ أنفاسَها فى غيرِ اكتراث . وأمالَ بصرَه إلى سفَطِ « الحاجة فاطمةَ » قابعًا تحت قدمِه يمثِّلُ الطُّهرَ والوقارَ والتقوى ... وطال إليه تحديقُه ... إن صاحبةَ هذا السَّفطِ مكتوبٌ لها نعيمُ الجنةِ تخلُدُ فيه ، أما هو فمكتوبٌ له عذابُ النار وبئْسَ القرار .. وركلَ السَّفطَ ركلةً

ألقته بعيداً . وما لبث أن لاح لمخيلته شبح « أبى النبايل بك » ذلك الشيخ السادر فى مآثمه ، المتهتك فى شيبته بعد حياة عفة ونقاء ، وتمثله وهو يشاركه فى مكانه من الجحيم ، فطافت بفمه ابتسامة ، وهمهم :

« العبرة بالخاتمة ، ياحاجة فاطمة ! » .

ونادى بخادم القهوة ، فدفع إليه ثمن الشاى والكعك من نقود سيدته ... ومر به بائع لفائف التبغ فاشترى علبة ودفع ثمنها من تلك النقود أيضاً ... وكان وهو يدفع هذه النقود يتجه بطرفه خلسة إلى السقف ، ثم يزور عنه سريعاً ! ...

*

كان الملهى فى مساء ذلك اليوم غاصاً بالرواد ، كله عبث صاخب ، عبث فى النور ، في الشراب ، في الرقص ، في الكلام ، فى الضجة ... عبث فى كل شيء ...

إنها حفلة ممتازة من حفلات السنة !

وانتشرت الغانيات فى الملهى تنساب بين الموائد انسياب الظباء بين الخمائل ... وكانت لفائف التبغ حيرى متعبة وهى تعلو وتهبط فى الأيدى رائحة غادية ، ثم يقذف بها وهى فى جدتها لم يستوف تدخينها ، فتطؤها الأقدام لاهية غير عابئة ... وتراءت الخصور تتثنى والنهود تترجح على أنغام « الجاز » والغناء يرتفع فيختلط بالضجيج متزايلاً فيه ، واشتدت الزحمة ، وكثر الطلب لأقداح الخمر ، واختلط السقاة بالرواد ، فلم تعد تميز بين خادم ومخدوم . حتى لقد ترى الصوانى طائرة فوق الرءوس ذاهبة آيبة بلا هوادة ولا رفق كأنها وحدها تسير ... كل هذا و « عبده السهتان » بجوار رفيقه القديم عمود الملهى يرى ويتحسر . وعيناه تتنقلان بين الأقدام الفتانة والسيقان العارية يطوف بخاطره حادث الغانية التى هم بتقبيل ساقها وهو يعالج وضع قدمها في الحذاء ... وكان

يُخَادِعُ السُّقاةَ والرُّوّادَ فيحتسِى صُبابَاتِ الكُئُوسِ، أو يَهبِطُ على الأرضِ يجمعُ اللفائفَ فيستمتعُ بأنفاسِها التى زَهِدَ فيها العابثُون ...

وغادرَ « عبده السهتان » الملهى بعد مُنتصَفِ الليل، وقصد إلى حانةٍ حقيرةٍ يستكمِلُ فيها حاجتَه إلى الشراب، واندفع يَعُبُّ مِنْ خمرِها المحْرِقَة؛ وخيالُ الملهى بمشاهِدِه الخلَّابةِ يملأُ رأسَه ويتراقصُ أمام عينِه.. أطيافُ المرأةِ بسيقانِها العاريةِ وأقدامِها الرشيقةِ التى لا تَهْدَا لها حَرَكة ... وما إن فرَغَتْ نقودُه حتى حمَلَه صاحبُ الحانةِ ودفع به إلى الطَّرِيق. وبعد تَجْوالٍ هنا وهنالك مُتَرنِّحًا متساقِطًا احتواه وَكْرُهُ العَتِيقُ، فرمى بجِسْمِه على الدَّكَّةِ الخشبيَّةِ. وما لبِثَ أن غَشِيَه سُبَاتٌ ثقيل.

وفى صُبْحِ اليومِ التالى، والساعةُ قد بلغَتْ السادسةَ، بدأ يتعَالَى أمام حجرتِه هذا النداء: يا ولد يا عبده.. يا عبده الكلب ... يا نجس!

وكانت الألفاظُ يُزَاحِمُ بعضُها بعضًا متجمعةً حولَ حجرتِه تحاصِرُها وتهزُّ بابَها هزًّا عنيفًا، وما لبثَتْ أنِ اقتحمتِ البابَ وتدفقَتْ تصارِعُ أُذُنَيْ « عبده السهتان » وكان فى ذلك الوقتِ أسيرَ حُلْمٍ تتراءَى فيه غانيةُ الملهى تمُدُّ له ساقَها، ليُصْلِحَ وَضْعَ قَدَمِها فى الحذاء، وهى تَغمِزُ له بعينٍ مُسْتَرْخِية، وتبادِلُه ابتسامًا بابتسام!...

ولكن صَخَبَ الملهَى تزايَدَ بغتةً، وظَلَّت الضجةُ تَعْلو، ولفظةُ « نجِس » تتطايَرُ كالشَّرَرِ فى هذا الجوِّ الثائر. و « عبده السهتان » يتقلَّبُ فى فراشِه دون هَوادةٍ، وكاد يَصْرُخُ لِيُسْكِتَ الضجةَ، فوجد عَيْنَيْه قد تَفَتَّحتا محملقتَين.

ثم ألفَى نفسَه يصيحُ بصَوْتٍ جَهْوَرِيّ: حاضر ... حاضر ...

ونهضَ مهرولًا ينفضُ النومَ عن جَفْنَيْه، ورأسُه ما برِحَ مُثْقَلًا بما عبّ فى ليلتِه من شراب. وراح يهمهمُ فى زَمْجرةٍ مكتومة. ودَلَفَ إلى بابِ مَسْكَنِ « الحاجة فاطمة » وعلى فمِه ابتسامتُه المطبوعة، وإشراقُه المتصنَّع. ووقفَ على قِيدِ خُطْوَتَيْن من الباب، وقال وهو يَمْسَحُ لُعابَه المتسايِلَ: أية خدمةٍ تَبْغِينَ يا ستى الحاجة؟

وتخايلَ شَبَحُها من جانبِ الباب مُلَفَّفةً بالبياضِ ، فراح يسارِقُها النَّظرَ ، فتجلَّى له جسمُها المكتنزُ ، ورأى قدمَيْها الناصعتَيْنِ تملآنِ القبقابَ . وسمعها تقولُ :

ألا تعرفُ عملَكَ يا قذِرُ ؟ عملكَ الذى تأخُذُ عليه أجرَكَ ؟ أليست اللُّقْمةُ التى أَمْنحُكَ إياها هى التى تقوتُكَ يانجِسُ ؟ !

واندفعتْ تُطْلِقُ عليه قذائفَ السِّبابِ متراصَّةً حامِيَةً ، فحدَّقَ فيها ، ثم صاح : كفاكِ شَتْماً ... ماذا تظنِّين نفسَكِ ؟ !

— أَتذْنِبُ ثم تتوقَّحُ وتتبجَّحُ ياقليلَ الأدبِ ؟

— صُونِي لسانَكِ عن هذا الكلام ... وإلا ...

— ماذا يا كلبُ ؟ ... ماذا يانجِسُ ؟ ...

ورفعَت السَّفَطَ فى يدِها ، ثم قذفتْ به فى وجهِه ساخطةً ، فأخطأَتْهُ ، ولكنَّ اندفاعَها وهى تقذِفُ بالسفَطِ جعل القبقابَ ينزَلِقُ عن قدمِها ، فتظهرُ القدمُ جليَّةً أمام عينِ الرجلِ ، وإذا بـ « الحاجةِ فاطمة » تفقِدُ تماسُكَها وتُوشِكُ أن تهْوِيَ ، فعجلَ إليها « عبدُه السهتان » مارقًا من الباب . فأمسكَ بها يريدُ أن يحمِيَها من السُّقوط ، فتهاوَتْ عليه بجسمِها البَدِين ، فسقطا معًا ، وقد التوتْ قدمُ « الحاجةِ فاطمةَ » فردَّدَتْ متألِّمةً : رِجْلى ... رِجلى ...

ونهضَ الرجلُ ليرى ما أصابَها ، وامتدَّتْ يدُه إلى قدمِها يتحسَّسُها ويَدْلُكُها وأحسَّ بها ناعمةَ المَلْمسِ ريَّانةَ الجوانب ... وزاغ بصرُه ، واضطربَتْ أخيِلَتُه ، فلم يَعُدْ يُميِّزُ أيَّةَ قدمٍ هذه التى بين يديه ؟ وأخذت المشاهدُ تتشابكُ فى رأسِه المُثقَلِ بآثارِ الشراب ... حادثتُه مع غانيةِ الملهى ، « أبو النبابيل بك » الشيخ المتصابى الثَّرِىُّ ، الليلةُ البارحةُ وما كان فيها من عبَثٍ ومُجُون ...

وكانت يدُه ما فتِئَتْ تَدْلُكُ قدمَ « الحاجةِ فاطمةَ » فى حنانٍ ورِفْقٍ ، وخُيِّلَ إليه أنه يَسْمعُ صوتَها وهى تقول : تنحَّ عني ، لا تمسَّ قدمي يانجِسُ !

ووَثَبَ في مُخَـيِّلَتِه مَشهَدُ « أبي النبايل بك » وهو يتبوّأ معه مقعَـدَه من الجحيم ، وقد تدانى منهما شَبَحُ « الحاجةِ فاطمةَ » في طريقِها إليهما ...

وإذا بِضِحْكةٍ صاخبةٍ تنطلِقُ من حلْقِه ، فيهتَزُّ لها جِسْمُه ...

وإذا بعينيْه تلتهِبانِ وتَسبَحانِ إلى ساق « الحاجةِ فاطمةَ » ...

وإذا به يَنقضُّ بفمِه على الساقِ الناصعةِ المَلْساءِ ، وقد طوّقَها بيدَيْه ، وشفتاهُ تختلِجان ...

وشاع صَمْتٌ عميق لم يكن يَشوبُ صفوَه إلا بعضُ زَفَراتٍ وتنهُّداتٍ ... !

«أبو علي» وزجاجة الكونياك

ترك « أبو على » الأستوديو ، ودَلَفَ إلى الشارع يتخطَّرُ فى مِشْيَتِه ، ويتعالى بقامتِه القصيرة ، متلفِّتًا يَمنةً ويَسرةً إلى السابلةِ حولَه ، يجودُ عليهم بين الحينِ والحينِ بنظراتٍ خاطفة من نظراتِه المُتَرفِّعةِ المتعاظِمة .

لقد أكملَ اليومَ دَوْرَه في فلمِ « النجوم العشرة » وهو دَوْرٌ على قِصَرِه مُفعَمٌ بأكبرِ الحوادثِ خطرا ، وأعظمِها شأنا ، يُمثِّلُ مشاجرةً عنيفةً تقعُ فى قهوة بلديَّة . وكان دَوْرُه ينحصِرُ في أن يتأثَّرَ « نزاكه » ـ النجمةَ العالميةَ المصريةَ ـ فيطارِحَها الغزلَ على قارعةِ الطريق ، فيخرجَ له من القهوة « أبو عفَّان البلطجىُّ » ـ النجمُ المصرىُّ العالمىُّ ـ فينهرَه ... وسرعانَ ماتحتدِمُ المشاجرةُ العنيفةُ التقليدية ، ثم تنتهى على أحدثِ الطُّرُقِ الفنيَّةِ الأمريكية !

لقد نال « أبو على » ثلاثةَ جنيهاتٍ ، أجراً على قيامِه بتمثيلِ دَوْرِه ... وهى مكافأةٌ في الحقِّ بَخْسَةٌ ، قَبِلَها تضحيةً منه فى سبيلِ الفنِّ ... ذلك الفنِّ الذى وقف حياتَه على خدمتِه ، والعملِ على رُقِيِّه ، لايبتغى من وراء ذلك جزاءً ولا شُكورا ...

سار « أبو على » فى الطريقِ منتفخَ الشِّدْقَيْن نافِرَ الأوداجِ . لقد كان انتصارُه فى الواقعِ عظيماً ، ولكنَّ لكلِّ انتصارٍ ثمنَه . إنه يَكْتُم مابه من

أَلَمٍ صارخ ، ويتحسس خُفْيَةً رأسه وصدره وساقيْه وما فيها من كَدَمَاتٍ وجِرَاح .
ولـكنَّ كلَّ هذا هيِّنٌ مَيْسُور ... حَسْبُه أنه استطاع بحِيلَةٍ طريفةٍ أن يَطْرَح « البلطجىَّ أبا عفَّان » أرضًا ، وأن يجعله يتمرَّغُ فى حَمْأَةِ الطريق ...

وداعبَتْ أصابعُه الِحَمْظَةَ العامرة بالورَقاتِ المالية الثَّلاث ، فهبَّتْ على الأثرِ أمامَه عاصفةٌ من المطالبِ والرَّغَبات . وما أسرَعَ أن قفزَت المشروعاتُ الفنِّيَّة إلى خاطِره تتدافَعُ وتتسابق ، ففَسح لها أَرْحبَ الأمكنةِ وأطيبَها ... ومرَّ بباله عَفْواً مَطْلَبٌ عَتِيد لِأُمِّه ، حُلُمٌ قديمٌ طالما رَغِبَتْ فى تحقيقه ، ولـكنه ظلَّ عنها بعيدَ المَنَال ، ذلك هو الحصولُ على كَيْلَةٍ من الأَرُزِّ وبضعةِ أرطالٍ من الزُّبْدِ لـكى تَنْعَمَ بمذاقِها فترةً من الدهر ... وبرزَ أمامَه حانوتُ بقَّال تُرَصِّعُ وجهتَه أشتاتٌ من السِّلَعِ المغريةِ بحُسْنِ رَصْفِها وتنسيقِها . فخفَّفَ من سَيْرِه ، معتزمًا أن يدخُلَ الحانوتَ ليَشْتَرِيَ لأمِّه ما طَمِعَتْ فيه ... إنَّ للأمومةِ حقًّا يجبُ أن يرْعاه ... وما كادَ يَخْطُو صَوْبَ الحانوت حتى تراءَتْ له « قهوةُ الفَنِّ » بموائِدِها العتيقةِ الجائرةِ على طَوارِ الطريق ، وحولَ كلِّ مائدةٍ شِرْذِمَةٌ من زملائه الفنَّانين يُناقِشُونَ فى صَخَبٍ وشَغَب . وتَضَوَّعَتْ روائحُ الخمرِ تداعِبُ خياشيمَه العَطْشى ، فقد مضى عليه وقتٌ طويلٌ لم يَطْرُقْ فيـه هذا العُشَّ الحبيبَ ، فأحسَّ الصَّبْوَةَ تعتلجُ فى قلبِـه وتَثُور ...

وحَثَّ خطاه نحوَ القهوةِ ، وما هى إلا أن طَوَتْه فى غِمارِها المتدفِّقة !

واحتلَّ « أبو على » إحـدَى الموائد ، ودعَا بالشراب ، فالتفَّ الأخدانُ حولَه ، فانطلقَ يُحَدِّثُهم عن فلم « النجوم العَشرة » ودَوْرِه فيـه ، وخاضَ فى ملاحظاتِه ونَقَدَاتِه . وكان يَعُبُّ من « الـكونياك » عَبَّ من اسْتَعَرَ أُوارُه ، والأخْدَانُ يُحيطُونَ به مُحْتَفِينَ مُتَهلِّلِينَ ، وزجاجاتُ « الـكونياك » تتوالَى ، والـكئوسُ تَصْعَدُ مُتْرَعَةً إلى الشِّفاه ، وتَهْبِطُ فارغةً إلى حافَةِ المـائدة ، والضجة

تتعالى ، وقهقهة « أبي على » تجلجل مجنحة في سماء المكان لا يقرُّ لها قرار ...

وما كاد الليلُ ينتصِفُ ، حتى نهض « أبو على » يودِّعُ رِفاقه ، ودفع ثمن الشرابِ كاملاً فى سخاء وإمارة ، وهو ينهر الساقيَ ويزجره ... نهض يترنح غيرَ مكينٍ فى وقفته . فهرِعَ إليه الصبيُّ ماسِحُ الأحذية ينفضُ عن حذائه المتغضنِ المتآكلِ ماعلقَ به من تُراب ... فرمقه بنظرةٍ شزراء ، وغمغم قائلا وهو يقذِفُ إليه بقطعة من النقودِ : اذهبْ يا ولدُ فأحضِرْ لى عربةً ...

— على عيْني ورأسِي يا بك ...

ولم يكد الغلامُ يستديرُ على عقبِه خارجاً حتى شعرَ بقدمِ « أبي على » تدفعُه بغلظةٍ فى ظهرِه ، فانكفأ على وجهه ، وانبعثَ الأستاذُ يجعجعُ بضحكةٍ جبَّارةٍ موصولةِ الحلقات .. ووقع بصرُ « أبي على » على زجاجاتِ « الكونياك » متراصّةً على المنضدةِ ، تلتمعُ فى وضاءةٍ وسحرٍ ، كأنها الغواني الفاتناتُ يتغايدْنَ على المسرحِ يعرِضْنَ على النظّارةِ فنَّهنَّ البهيج . وفطنَ إلى أن إحدى الزجاجاتِ ما يزالُ بها بِضعُ جُرعاتٍ ، فغافلَ الجمعَ - أو بدا له أنه قد فعلَ - واجتذبَ الزجاجةَ فدسَّها فى جيبِه ... وخرج يتهادَى فى خُطًا متعثِّرة ، فألفى العربةَ تنتظِرُه فصعِدَ فيها وانحطَّ على مقعدِها ، فغطسَ فيه ، فلم يظهرْ منه إلا قدمان قد ارتفعتا واستقرَّتا خلفَ مقعدِ السائقِ ... وسُمِعَ صوتُه يصيحُ فى حشرجة :

إلى سيدنا الحسين يا أسطى ... !

وجعلت العربةُ تُجرجِرُ بحصانيْها الأعجفيْنِ المُجهدَيْنِ وسائقِها الهدِمِ المتجمِّع على مقعدِه العالى العتيقِ ، وراحَ « أبو على » يترنَّمُ بمختلِفِ الأناشيد ، تارة يعلو بها مُصوِّتاً ، وتارة ينزِلُ بها إلى أدنَى درجاتِ الإيقاع ... وعيونُ السابلةِ تقتحِمُه في فضُول ، وسوْط السائقِ ينكمشُ منطوياً على نفسِه ، ثم لا يلبثُ أن ينبسط فى فرْقعة مُدوِّية ، كأنه يكمِلُ النغمةَ فيما يترنَّمُ به الأستاذُ من غِناءٍ أصيل .

وانتهى المَطافُ بالعربةِ أخيراً إلى « سيدنا الحسين » ، ونزل « أبو على » وقد أفرغ ما فى جيبِه فى يدِ السائق ، وتباطأ برهةً فى سيْرِه حتى لا تفوتَه كلماتُ الشكرِ والاعترافِ بالجميل ، يُغدِقُها السائقُ على مسامعِه . ولكنه سمع الرجلَ يصيح مُتَسخِّطاً مُتبرِّماً ، فاشرأبَّ إليه مهتاجاً ، وقد تنفَّخَ فى وِقْفَتِه ، وجعل يَجْأَرُ بقولِه :

أتحسَب أيها الوضيعُ أنك قادرٌ على أن تتغفَّلَنى ، وتنال منى ما لا تستَحِقه ... لا يستطيعُ أحدٌ كائناً مَن كان حتى الجِنُّ الأزرقُ أن يستخِفَّ بى ويَهْزأَ ... !

وطال النِّقاشُ ، وتشابكت الأصواتُ فى ضوضاءَ تعكِّرُ صفوَ الليلِ الوادِعِ المستنيمِ ... وسُمِعَ صوتُ قارئٍ يُرَتِّلُ آيَ الذكرِ الحكيمِ على مقربةٍ من المتشاتِمَيْن ، فأمسكا ... وغمغم « أبو على » قائلا :

أما تستحِى أيها الرجلُ أن تُعْلِيَ صوتَك على صوتِ القرآنِ الكريمِ ؟!

وأيقنَ السائقُ أن ليس ثمةَ حيلةٌ تُجْدِى مع هذا القَزَمِ الصَّخاب ، فاستدار بعربتِه ، وانبرى يُفَرْقِعُ بسوْطِه على ظهرَى حصانيْه الأعْجفَيْن ، وهو يبرطِمُ لاعناً الزمنَ وأهلَه ...

وانحدرتِ العربة تجرجِرُ فى مُنْعطَفاتِ الطريقِ يَطويها الظلامُ البَهيمُ ...

ومضى « أبو على » فى الشارعِ يتخايَلُ فى مِشْيَتِه ، وقد دَسَّ يديْه فى جيبِه ، وأبرزَ صدرَه ، وعَلا بهامتِه ... وعرَّج فى مَسِيره على القارئِ وهو على حالِه يرتِّلُ آياً من الكتاب العزيز . فوقف قُبالتَه يستمع ، فما ينتهى القارئُ إلى مَقْطَعٍ حتى يَعْجَلَ « أبو على » بقولِه : الله ! ... الله ... !

ولمحَ يدَ القارئِ تمتدُّ طلباً للعطيَّة ، والمَسكنةُ باديةٌ عليه ، والحاجةُ تُفصِحُ عن نفسِها فى أسمالِه البالية ... فتحركتْ الشفقةُ فى قلبِ « أبى على » وثارت أرْيحيَّتُه ، وعقَد عزمَه أن يهَبَ لهذا القارئِ أسخَى عطيةٍ تُنقِذُه مما به من

بُؤسٍ وضرٍّ ، ابتغاءَ مَثوبةِ اللهِ ورضوانِه . فرفع بيدِه إلى جيبِ صِدارِه يُنَقِّبُ ويُفتِّشُ ، فلم يجدْ شيئاً . فبحثَ فى مختلِف جيوبِه الأخرى وقد أخذ منه العجبُ كلَّ مأخذ ، فأيقنَ أنها خاويةٌ جميعاً ... أيكونُ الحوذىُّ قد سلَبه مالَه ؟ وهمهم فى حيرةٍ يستمطِرُ اللَّعناتِ على ذلك الوَغْدِ الزَّنيم ...

وكان القارئُ يسترسلُ في ترتيلِه متحمِّساً ، ويُده تمتدُّ أكثرَ من ذى قبلُ مهتزَّةً تستعجِلُ العطاءَ ...

وعاد « أبو على » إلى زَوَايا جُيوبِه ، وخفايا ثيابِه ، يتحسَّسُ ويتلمَّسُ . فاصطدمت يدُه بزجاجةِ « الكونياك » القابعةِ فى ركنِها الكمين ، فانتزعها ، وأخذ يتفحَّصُ البقايا فى قرارتِها .

وطالت وَقفتُه يتأمَّلها ويُديرُها بين أصابعِه ، واختلجت شفتاه اختلاجةَ الحنين ، وتجشَّأَ طويلا . ثم اشرأبَّ إلى السماءِ ، وقد أشرقَ وجهُه بإيحاءٍ عميق ، وعزمٍ وَطِيد .

وفى حركةٍ تمثيليَّةٍ رائعةٍ امتدَّتْ يدُه بزجاجةِ « الكونياك » إلى القارئ ، وارتدَّ يتمثَّلُ فى خاطرِه أن العملَ الصالحَ لا بدَّ فيه من تضحيةٍ بالنفسِ أو النفيس ... !

وانكفأَ « أبو على » راجعاً إلى طريقِ بيتِه ، وهو راضٍ جَذْلانُ ، مطمئنُّ الضميرِ بعملِه الكبير ...

وانبعث يُخرِجُ من فمِه صفيراً يُوقِعُ به أحدَ أناشيدِ « النجومِ العشرةِ » ...

الطّابور الخامس

تَرَكَ الشاويشُ « أحمد فرقع » دارَ شُرْطَةِ « السيدة » حيثُ انتهتْ نوبَتُه فيه ، وسار في الطريق بجسمه الممتلئ القصير ، كأنه كُرَةٌ تتدحرج ، ميمّماً شَطْرَ « السيوفيـة » ليحظى بجلسَةٍ مُريحـة فى قهوةِ « زينةِ المديـنـة » على مألُوفِ عادته كلَّ يوم .

لقد قضى النهارَ بأ كلِه يعمَلُ عَملَه المُضنِيَ : يتلَقَّى الأوامرَ من رؤسائه ، ثمَّ ينفِّذُها فى مخلوقاتِ الله من الباعَةِ الجَوَّالين ، والمُسْتجْدِين ، وغِلمَانِ الأزِقَّة . فرجع أَبَحَّ الصوت من شدةِ الصِّياح ، متعبَ القدَمَيْن من الرَّواحِ والغُدُوّ ، قياماً بالواجِبِ الملقى على كاهِلِه . وكان على الرَّغْمِ من إجهادِه مشغولَ الفكر بموضوعٍ غامِضٍ لم يهتدِ إلى كَشْفِه ، وهو موضوعُ « الطابور الخامس » فقد طال التحدُّثُ به فى دار الشُّرْطَةِ ، وكَثُرَ فى شأنِه لَغْط الرؤساء ، سمِعهم يتباحثون فيه ويتجادَلُونَ فى جِدٍّ واهتمام ، تارةً همساً ، وطوراً جَهْراً . وخَجِلَ أنْ يسألَ أحداً عن هذا الطابور ، لئلاّ يُتَّهَمَ بالجهل ، وتُثَارَ حولَه عاصِفَةٌ من السُّخْرِيَة ، كما وقع له قبلاً حينما أراد أن يَسْتَوْضِحَ من بعضِ رؤسائه حكايَةَ الألغامِ المُمَغْنَطةِ !

دخل الشاويشُ « أحمد فرقع » قهوةَ « زينة المدينة » ، وأخذ يحتَسِى شايَه الأخضرَ قَدَحاً إثْرَ قَدَح ، وقد استلقَى منتفخاً على كُرْسِيِّه يُقَرْقِرُ بنارجيلته ،

وأزاح طربوشه عن جبهته ، فلم يعد يغطى إلا مؤخر رأسه ، وبسط جريدة الأهرام ، ومضى يطالعها ، أو على الصحيح يقلب فيها النظر ، ويعبر عناوين المقالات ، فصادفه عنوان بالخط العريض : « الطابور الخامس وضرورة مكافحة رجال الأمن له » ... فهرش رأسه طويلا ، ثم عاد يقرقر بنارجيلته .

وجاءه نفر من أصدقائه ـ أخلاط من أشباه المتعلمين ـ فما كاد يستقر بهم المقام حتى انطلقوا يثرثرون فى مسائل الحرب ، وما كسبته الدول وما خسرته ، وأدلى كل فرد برأيه فى مستقبلها ، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى « الطابور الخامس » فأرادوا أن يتبينوا رأى الشاويش « فرقع » فرمقهم بنظرة متعالية ، وابتسم ابتسامة تحفظ ثم أخذ يقهقه فى وقار وهو يفتل شاربه الغليظ ، فقال أحدهم :

لا يريد الشاويش فرقع بالطبع أن يتكلم أمامنا عن سر المهنة !...

فانطلقت قرقرة النارجيلة جهيرة متحمسة تجيب المتحدث بدلاً من الشاويش الكتوم !

قضى الشاويش سهرته فى قهوة « زينة المدينة » وهو يحس راحة ونشاطاً ، ومضى صوب منزله ، ولم ينس طبعاً أن يشترى شمامة طيبة من بائع جوال ، تأبطها فى زهو وهو يضرب الأرض بنعليه الثقيلتين فى خطوات متزنة .

دخل الشاويش داره فاستقبلته زوجه « روايح » بقدها السمهرى ، ووجهها الفاتن ، وابتسامتها المتألقة ، فشاعت الغبطة على أساريره ، وقال لها وهو يناولها الشمامة : أوحشتنى ، ما أطول النهار على وأنت غائبة عنى !

فقالت فى دلال ظاهر ، وهى تضع الشمامة جانباً :

وأنت أيضاً لقد أوحشتنى ، إنى أفكر فيك طول النهار ، وأقول : ماذا يعمل يا ترى ؟! الدنيا كلها متغيرة ، وكلام الناس يدعو إلى القلق ... أدعو الله أن يطمئننى عليك ... أنت عندى بالدنيا ... !

— لاتخافى علىّ يا روايح ... أنا لها ... !

— صحيح ياحمودة ياسبعَ الرجال ... !

وراح الشاويشُ « أحمد فرقع » يتأمَّلُ وجهَها طويلا وهو صامت ، ثم عاد يقولُ مغمغماً : تُرى ماذا عملتِ طولَ النهارِ يا روايح ؟

فقالت وقد زادتْ من تدَلُّلِها : عملتُ الذي قلتَ لى اعمليه !

— صحيح ... ؟ !

— ورأسِكَ الغالى ماخرجتُ من البيت !

— والحاجات ، من أتى بها من السُّوق ؟

— جاءت بها حلويات بنتُ الجيران كما أمرْتنى ...

— والشُّبَّاك ؟

— واللهِ لم أقتربْ منه ، فقدتُ عينىَّ إن كنتُ كاذبةً !

— تَسْلَمُ عيونُكِ ... ولكن ... ربما يمكن ...

— ماذا يمكن ؟ أُقسِمُ باللهِ إن يدِى هذه لم يَرَها أحدٌ غيرُكَ يامؤمنُ !

— حقاً ، ألم يرَها أحدٌ غيرى ؟

— لا واللهِ ، ولا أطرافَ أصابعى !

فاحتضَنَها الشاويشُ « فرقع » وهو يكرِّرُ قوله :

يا روايح القلب !... يا روايح النفس !... ياقطعةً من مُهْجَتى !

... وجِيءَ بالشَّمَامَةِ ، فوُضِعَتْ فى صِينِيَّةٍ وَسْطَ الحجرة ، وجلس إليها الزوجان ، وأخذا يقتطِعان منها ، ويلتهمان التهاما ، وعاد الشاويشُ « أحمد فرقع » أثناءَ الطعام يسألُ زوجَه فى حوادثِ يومِها مستفسراً عن دقائقِ الأمورِ ، مطالِباً بالشرْح والإفاضة ، كأنه يُحَرِّرُ محضرَ تحقيقٍ فى دار الشرْطة ، و « روايح » تُجيبُ بلا ملَل ، وقد تَشْفَعُ الكلمةَ بابتسامةٍ مصحوبةٍ بغمزةِ عين ، والجملة

بِضَحكةٍ ناعمة مَرِحة ... وكان أن خَتَم الشاويشُ حديثَه بقوله :
أنت تعرِفينَنى ... لابدَّ أن تُنَفِّذِى أوامرى حرفاً بحرْف .
فأجابته وهى تجمَع فضَلاتِ الشَّمَّامةِ فى الصينية :
أيقدِرُ أحدٌ أن يخالفَ لكَ كلاما ؟ !
وكان الشاويش مع تدَلُّهِهِ بحبِّ زوجتِهِ يكرَهُ منها شيئاً واحداً : أنها تَعرِفُ أن تفُكَّ الخَطّ . فقد عَدَّ ذلك خروجاً على التقاليد الصالحة ، فأصدر أمرَه إليها أن تكُفَّ عن مزاولَةِ هذه البِدْعةِ ، بِدْعةِ القراءة والكتابة . فليس عليها أن تشغَلَ نفسَها بما لا يَنْفَع ، إذْ أن « فكَّ الخَطِّ » من أعمالِ الرجال ، فلتترُكْهُ له وحدَه !

*

وانطوت الأيام والشاويشُ « أحمد فرقع » يحيَا حياتَه الراتبةَ هذه فى رِضاً وارتياح . كلُّ شىء يسيرُ وَفْقَ هواه .
ولم يكنْ ينغِّصُه إلا أمرٌ واحدٌ هو « الطابور الخامس » إذْ لَم يصل بعدُ - بالرغم من تجنِّه واستقصائه - إلى كشْفِ مايحوطُه من غموض !
وشُوهِد الشاويشُ « فرقع » مرةً عائداً إلى داره . وهو يحملُ قِرطاساً كبيراً من « المشمِشِ الحمِويّ » ، تلكَ الفاكهةِ الطيبةِ التى لم تغمُرِ السوقَ بعدُ ، والتى لايحصُل عليها إلا المقتدِرون .
ودخل البيتَ وهو يُعِدُّ الجملةَ التى سيقابلُ بها زَوْجَه :
« أُنظرى ياروايح ماذا أحضرتُ لك ؟ أيُّ الرجال جاءَ إلى أهل بيته بمشمِش حموِىّ ؟ ! »
ولكن لم تقعْ عينُه على زوجه ، فصاح يناديها ويكرِّر النداء ، فلم تُجبْهُ أحد ، فوضع القرطاسَ بجوارِ الباب ، ودخل يبحثُ عن زوجه وهو يُهمهم :
لماذا لا تَرُدِّينَ علىَّ يا روايح ؟ !

وطاف المنزلَ ، فلم يجدْ أحداً ، فوقف وسْطَ القاعة ، وصاح صيحة مُدوّية :

تعالَىْ هنا ياروايح ! ... إنى أكرَهُ هذا المِزَاحَ !

وأخيراً جلس على المقعد يجفّفُ عرقه ...

لعلها تكونُ قد خرجَتْ لتَقْضِىَ حاجة ، ولكن كيف تَقضِى أمْرَه وتتركُ المنزلَ ؟ !

وقام ثانيًا ومضى يُناديها ، وقد انتفخت أوداجُه ...

ووقع بصرُه بغتةً على خِزَانةِ ملابِسِها فوجدها مفتوحةً ، فهُرِعَ إليها ينظرُ فيها ، فألفاها خاليةً من الثياب ... !

واندفع فى لَمْحِ البصر إلى الصندوق الصغيرِ الذى يَحْوِى حُلِيَّها : فلم يجدْ فيه شيئًا ، فاتسعتْ حدقتا عينَيْه ، وانطلق يغمغم فى خَلْط :

أيكونُ اللصوصُ قد انتهبوا البيتَ ؟... ولكن روايح ... أين ذهبتْ ؟

ورأى فى قاع الصندوق بعضَ أوراق متناثِرة ، فأخذ واحدةً منها ، فألفاها رسالةً ما كاد يقرأُ منها سطراً حتى دارت الدنيا أمامَ ناظرَيْه ...

أَبْعَدَ الرسالةَ عن وجهِه ، ولكنه مالَبِثَ أن أدناها من عينيه ، واندفع يقرؤُها ، وأخذ أخرى وتنفُّسه يزداد اضطرابا ، ثم ثالثةً ورابعة ...

وقام يروحُ ويجىء فى عُرْضِ الحجرة ، وهو لا يفتأُ يسائلُ نفسَه ويكذبُ عينيه ، وشاهد غيرَ بعيدٍ منه قرطاسَ المشمِشِ ، وكأنه ينظر إليه يسائله : ما الخبرُ ؟ !

فركَله بحذائه الثقيل ركلةً بعثَرتْ مافيه ، ثم عاد إلى الصندوق ، ومضى يجمعُ الرسائلَ ويُعيدُ تلاوتَها ...

يا لَلّه من هذه الجملِ المُنَمَّقةِ التى ينبعِثُ منها عِطرُ الغرامِ ثائراً فوّاحا ... !

ويا لَلّهِ من هذه المواعيدِ الجريئةِ التى لم يكن يَخْطُرُ على باله أن تقعَ ...

وأخيراً يا اللهِ من هذه الأسماءِ التى تُختتَمُ بها الرسائل . إنه يعرِفُ أصحابَها ، كلُّهم أصدقاؤه ، ضيوفُ قهوته « زينةِ المدينة » ، أشباهُ المتعلمين ، من يَعُدُّونه بطلَهم ، ويغمُرُونَه بكلِّ مهابةٍ وإجلال ... !

وافترش الأرضَ متربِّعاً ، والرسائلُ تملأُ حِجرَه ...

وانسرح يفكِّر ، وطال تفكيرُه ...

ولمعت عيناه فجأةً بوميضٍ حادّ !

فى هذه اللحظةِ وحدَها استطاع الشاويشُ « أحمد فرقع » أن يَفْهَمَ ماخَفِىَ عليه فَهْمُه من أمرِ « الطابور الخامس » ...

لقد اهتدَى على ضوءِ تجارِبه الخاصَّةِ إلى حلِّ اللُّغْزِ العَويص !

البديل

نشأتُ يتيمَ الأبِ والأمِّ ، أَعِيش مع عمى في منزِل الأُسرة بحُلْوانَ . وكنتُ أبلُغ من العُمرِ العاشرةَ عند ماوقعتْ هذه الحادثة التى أَرْوِيها . وقد أخبرونى أن أبى قد ماتَ وأنا رضيع ، أما أُمى فقد تُوُفِّيَتْ ولى من العمر أربعةُ أعوام ، فلا أذكر منها إلا طَيْفا خفيفا ، قليلًا ما أَلَمَّ بى ، وسرْعانَ ما اختفى . وكانت تعيشُ معنا سيدةٌ تُدعى « الست عَيُّوشة » من أقارِب عمى ، ولم تكن بالمرأة المحبَّبةِ إلىّ . هى نحيفةٌ طويلة صَمُوتٌ جافِيَةُ الطبع ، لها نظراتٌ كريهة وابتسامةٌ خاطفةٌ تبعثُ الِاشْمِئزازَ فى النفس .

وكان عمى يعاملنى بِغِلْظَةٍ ، ولكنه يُشْعِرُنى بعضَ الأحيان بشىء من العطفِ . وكنتُ أخافُه وأكرَهُ منه غُلُوَّه فى التحفُّظ ، ودِقَّتَه البالغةَ فى النظام . وهو يبلُغ الستِّينَ ، مديدُ القامة ، حادُّ النَّظَرَات ، يسيرُ فى خُطُواتٍ عسكريَّة متثاقِلة ، يلتزِمُ فى حياته نظامًا دقيقًا لا يَحِيدُ عنه ، فلا أتذكَّرُ أنه تأخَّر مرةً عن موعِدِ الأكل ، وإذا حلّت العاشرةُ مَساءً وجدتُه أمامَ مكتبه غارِقًا فى أبحاثِه القضائيّة ...

*

كنتُ فى ذلك الوقتِ فى مُسْتَهَلِّ الإجازة الصَّيفيَّة ، أقضِى يومى إما فى

حديقتنا الصغيرة ، أتسلّقُ الشجر مع أولاد الجيرانِ ، أو ألعب معهم بالكرة .

وبينما كنّا نلعبُ ذاتَ يوم بالكرةِ أمامَ الدارِ ، إذْ رأيتُ سيدةً تخترقُ الشارعَ . فلما رأتْنا نتقاذفُ الكرةَ ، وخَشِيَتْ أن يُصِيبَها منها أذًى ، سارت على الطُّوارِ بجوار الحائط متجنِّبةً مرْماها . كانت حسناءَ ، في مقتبَلِ العُمرِ ، ذاتَ شَعرٍ أصفرَ يلمعُ لمعانَ الذهب ، تجذِبُ الأنظارَ بأناقتِها وزينتِها ، وتُمسِكُ بعصاً في يمينها تعبَثُ بها يَمْنةً ويَسْرَة .

وما هي إلا أن قذفَ أحدُهم الكرةَ فانطلقتْ صَوْبَ السيدة ، وكادت تُصيبُها لولا لَحَاقي بها ، وتحويلي اتجاهَها . ونظرتْ إلينا السيدةُ نظرةً بين الغضبِ والعِتاب ، ولكن ما كاد بصرُها يقعُ عليّ حتى توقَّفتْ عن المسير ، وأخذت تُلاحظني ، ثم ابتسمتْ لي في رقة ، فلم آبَهْ لها ، واستأنفتُ لَعِبي ، ورأيتُها واقفةً مكانَها بِضْعَ دقائقَ تتبَعُني بنظرها المشغوفِ حَيْثما تنقلْتُ .

وفي مثلِ ذلك الوقتِ من اليوم التالي ، رأيتُ سيدةَ أمسِ تسيرُ على مَقْرَبةٍ منا في خُطوات مُتمهِّلة ، فما إن وصلتْ إلى شجرةٍ على جانبِ الطريقِ حتى وقفتْ في ظِلِّها ترقبُنا ونحن نلعبُ ، وشعَرْتُ بها تخصُّني – دونَ رفاقي – بنظرَتِها . وبعد بُرْهةٍ لمحْتُها تُشِير إليّ بيدها تستدعِيني إليها ، فلم أستجِبْ ، وواصلتُ لَعِبي . وظلَّت السيدةُ تلاحظُني في اهتمام ، فضايقتْنِي هذه الملاحظةُ بعضَ المضايقة ، فارتبكتُ . وهجَمَ عليَّ وقتئذ زميلٌ أوقعَنِي وانتزَعَ الكرةَ مني ، ورأيتُ السيدةَ تُهرَعُ إليّ ، وتساعِدُني على النهوض ، وتنفضُ الترابَ عن ملابِسي ، ثم انتحتْ بي ناحيةً وسألتْني : هل أصابكَ ضرر ؟

فأجبتُها : كلاّ ...

وأخذتْ تدقِّقُ النظرَ فيَّ ، ثم قالت : يا لله ! أنتَ مجروح !

— مجروح ؟!

— جُرْحٌ خفيف ، خَفيفٌ جدًّا ...

وكان صوتها مُوسيقياً عَذْباً أَطْرَبنِي ، فأصْغَيتُ لها ... وأخرجتْ مِنديلَها ، وأخذتْ تمسَحُ جُرْحي ، وتُجفِفُ عَرَقي ، فانبعثَ من المِنْديلِ عِطرٌ جميلٌ أنْعَشَني .

وقالتْ لي : أأنت الآنَ أحسنُ حالا ؟

— لم لا أكونُ أحسنَ حالاً وأنا لم أُصَبْ بضرر ؟ !

فابتسمتْ ... وشعرتُ بأن إجابتي كانتْ جافَّة ، ورفعتُ بصري إليها ، فوجدتُها تُحَدِّقُ فيَّ وقد بدا عليها حُنُوٌّ غريب ... فاختلج قلبي ، وقلتُ : نحن نلعَبُ بالكرةِ دائماً ، وكثيراً ماوقَعْنا .

— أين تسكن ؟

— هنا .

وأشرتُ إلى منزلِنَا ، وجعل أَحَدُ رِفاقِي ينادِيني : واصِفُ ... وَاصِف !

فقالت السيدة : أهو اسْمُكَ ؟

— نعم ...

فانحنتْ على جبيني تقبِّله ، وأمرَّت يدَها على رأسي تُلاطِفُه ، ثم قالت : اِنطلِقْ إلى أصدقائك يا حبيبي .

وانطلقتُ ألعب ... أما السيدةُ فشيَّعتْني بنَظرةٍ طويلة ، ثم تابعتْ سَيْرَها بطيئَةَ الخطَا .

وفي المَساء اجتمعتُ كعادتي بعمِّي ، و « الستّ عيُّوشة » على مائدة العَشاء ، وكان الصمتُ مخيِّماً علينا ، كشأنِنا في كلِّ ليلة ... « الست عيُّوشة » في جلْستِها العسكريَّة لا يفارقُ وجْهُها الطَّبَق ، تتحرك كأنها آلةٌ بِزْنُبُرك ، وعمِّي بملامحِهِ الصُّلبة ، ورأسِه المرفوع ، لا تغادر عينُه الجريدةَ ، ولا يبادلُنا حرْفاً ...

وأخيراً نظر إلى « الست عيوشة » ، وقال لها : أسمِعْتِ بجارتنا الجديدة ؟

فتقلّص وجهُ « الست عيوشة » وقالت ، وجسمُها لم يتحرك قيدَ أُنْمُلة :
أيّةَ جارةٍ تَعْنِي ؟

فابتسم عمّي ابتسامته النُّكراء ، وقال : جارتنا الجديدةَ التي سكنَتْ منزلَ المرحومِ رءوف بك في الشارعِ المجاورِ لشارِعنا !

وصمتتْ « الست عيوشةُ » كأنما أخجلها أن يغيبَ عنها هذا الخبرُ .

فقال عمّي : يظهر أنكِ لستِ من أهل هذه الدنيا ... إن خبرَها شاعَ في حُلْوانَ !

فقالت « الست عيوشةُ » : وما أمرُها ؟

فأجاب عمّي ، وما تزال على فمِه ابتسامتُه النُّكراء : إنها جاءت من الإسكَنْدريّة لتنشُرَ في هذا البلدِ الصغيرِ وباءَها ، وباءَها المُهْلِكَ المُبِيد ... !

فجحظَتْ عينا « الست عيوشةَ » ، ولكنَّ رأسَها لم يهتزَّ ، وقالت : أمريضة هي ؟

— أشدُّ من مريضة ... إنها من النوع الهَدّام الذي يُخرِّبُ البيوت ، ويقوِّضُ سعادةَ الأُسَر ... إنها ... إنها ... ألا تَفْهَمِينَ ؟!

— فاهِمة !

— سمعتُ أنها كثيرةُ التبرُّجِ ، ولها شَعَرٌ أصفرُ لا بدَّ أنه مصبوغ ...

— مؤكَّد ، إنه مصبوغ !

— وقد رأَوْها تسيرُ بعصًا في الطريق .

— كيف ؟ أعجوزٌ هي ؟

— أجهلُ عمرَها ...

— لا بدّ أنها تخفِي سِنَّها تحت طِلاءِ المساحيق الثقيلة ... يا لله ! ... ما أبشَعَها ... !

وكان قلبي في أثناء ذلك يدُقُّ دقًّا عنيفا ، ووَدِدْتُ لو تمكنتُ من وَقْفِ

هذا الحديث . وسمعتُ عمّى يقول : أرأيتِ سيدةً تسيرُ بعصاً فى الطريق ؟

فقلّصت « الست عيوشةُ » فمها مستنكِرةً ، وصمتَ عمى برُهةً ثم تكلّم فى حَزْم وتشدُّدٍ قائلا : أُحرِّمُ عليكم مقابلةَ هذه المرأة ، أو اتصالَكم بها ... !

فقالت « الست عيوشةُ » وقد زوَتْ مابين حاجبيْها :

معاذَ الله أن نتّصِلَ بهذه الفاجرة !

وقبلَ أن يتركَ عمِّى الحجرة ، ألقى علىّ نظرةً حادّة ، كأنه يقولُ لى : أَفاهمٌ أنت ؟

وعند ما استوثقتُ أن عمِّى صار بعيداً عنّا ، قلت « للست عيوشةَ » :

عجيبٌ أن يتحامَلَ عمى على هذه السيدة مع أنه لم يرَها !

— وما شأْنكَ وهذا ؟ أرأيتَها أنتَ ؟

— أنا ؟ كلا ... ولكن خبِّريني ، إذا حدث مثلا أنى رأيتُها تسير فى الطريق الذى أسيرُ فيه ، فماذا أفعلُ ؟

— تمهَّلْ ريْثما تُخْلِي لك وَجْهَ الطريق .

— وإذا رأيتُها تقترِبُ منى وتحاولُ أن تكلِّمَنى ؟

فرمقتْنى « الست عيوشةُ » بنظرةٍ فاحصة ، فاختلجَ قلبى ، ورأيتُها تبتسِم بغتةً ابتسامتَها الشيطانيَّةَ ، وتقول : أُراهِنُ أنكَ رأيتَها وكلَّمْتَها ...

فانطلقتُ اُنكِرُ فى تحمُّس ، ولكنى أحسسْتُ أن إنكارى ضعيف ، وأن صوتى يَخذُلُنى ، ورأيتُ نفسى بعد حين أقولُ « للست عيوشةَ » :

اقسم باللهِ العظيمِ إنى لن أراها ، ولن أُكلِّمَها بعـدَ اليوم . لا تخبِرى عمِّى بشىء !

وتشبَّثْتُ بجلبابِها مسترحِماً . فوقفتْ صامتةً تحدِجُنى بنظرِها البغيض ، ثم سارت مُتَّئدةَ الخُطواتِ مرفوعةَ الرأسِ إلى حجرتِها .

*

وانقضتْ ثلاثةُ أيّام لم أخرُجْ فيها إلى الشارعِ تفادِيًا من احتمالِ مقابلتي تلكَ السيدة . أما عمّي فقد ذكرها مرةً أخرى ونحن على المائدة ، في حديث مُقتضَب كلُّه سُخْط وثَوْرة ... فآلمني ذلك منه ، وعجبتُ لهذا الرجل الذي يَزُجُّ بنفسِه في كلِّ أمر ، ويُرِيدُ فرْضَ سلطانِه على كلِّ إنسان !

وفي اليوم الرابع خرجتُ إلى الطريق يدفعُني أَمَلٌ غامِضٌ إلى لقائها ، وتجاهلتُ ما أمر به عمّي ، بل شعرْتُ بشيء من الزَّهْوِ والسرور في تحدِّيه ، وأخذتُ أرُوحُ وأجِيءُ أمامَ المنزل أرقُبُ ظهورَها .

ولما طال انتظاري ولم تحضُرْ ، سرْتُ إلى الشارعِ المجاوِر حيثُ منزلُ « رءوف بك » الذي تسكُنُه . فلما اقتربتُ من بابه وقعَ نظري عليها في الحديقة ، وكانت تَقْطِفُ الأزهار ، ووقفتُ أمامَ البابِ ساكنًا ، أنظر إليها وأنا مفتون بجمالِها ، ذلك الجمالِ الذي يَغمُرُ قلبي بحُنُوِّه وعطفِه وطِيبَتِه . كانت تتنقَّل بين شُجَيْرات الوَرْدِ في ثوبِها البديع وشعَرِها الأصْفرِ يَتموَّج حولَ رأسِها ، فيُخيَّلُ إليَّ أني أشاهِدُ ملَكًا من سُكَّانِ السَّماء ! ...

ولِأمرٍ ما ، لفتَتْ وجهَها ناحيةَ الباب ، فرأَتْنِي ... ولشَدَّ ما كانت فَرْحَتُها ! فألقَتْ بزَهَرِها على الأرض ، وهرْوَلَتْ إليَّ ، وهي تقول :

واصِفُ ! تعالَ . أُدخُلْ يا حبيبي ، أُدْخُلْ .

وحَوَّطَتْنِي بذراعِها وقبَّلَتْ رأسي ...

يا لله من ذلك الشعورِ الغامض الذي أحسستُ به في تلكَ اللحظة !

وأخذتْ بيدي ، ودخلتْ بي الحديقة ، وجمعتْ ما انتَثَرَ من أزهارها ، وقدمتْه إليَّ وقالت : اِخترْ لكَ منها ما يَحْلو .

وأخذتْ تساعِدُني في اختيار أحاسِنِها ، ثم قدّمتْ إليَّ الضُّحْبَةَ وهي تقول :

هي لكَ يا حبيبي !

وكان في الحديقةِ دَكَّةٌ فجلستْ عليها وأجلسَتْني بجانبها ، وجعلت تحدِّقُ في وجهي طويلا وتمسَحُ رأسي . واكتسَى وجْهُها بالحزن ، ورأيتُها تمسَحُ عينَيْها بحركة خفيَّةٍ ، ثم قالتْ :

لماذا لم تلعبْ بالكرةِ مع أصحابِكَ في ثلاثةِ الأيامِ الماضية ؟

فطأطأتُ رأسِي ، وقلت : كنتُ متوعِّكاً قليلاً ... ولكن من أخبرَكِ بأني لم أظهرْ في هذه الثلاثةِ الأيَّام ؟

— ذهبتُ بنفسي حيثُ تلعبون ... وكنت أنتظرُكَ كلَّ يوم !

فعجبتُ من هذا الاهْتمام ، وشَعَرْتُ بشيء من الخجل ... ووقع بصري في هذه اللحظةِ على بابِ الحديقة ، فتذكرتُ أمراً أشْعَرني بخوف ، وتلفتُّ حَوْلي فرأيتُ ظُلَّةً بعيدةً عن الأنظار ، فرفعتُ بصري إلى السيدةِ وقلتُ لها :

ألا يُمكِنُنا أن نجلِسَ في هذه الظُّلَّة بعيدَيْن عن الباب ؟

فابتسمتْ لي ابتسامةً لطيفةً ، وقالتْ :

ما رأيُكَ في أن ندخُلَ المنزلَ ؟ ... لديّ شيء أُريدُ أن أُريَكَ إيَّاه !

وقامت وهي ممسكةٌ بيدي ، وسارت بي إلى المنزل وأنا طائع ، وأجلسَتْني في الرَّدْهة الداخليّة ، فإذا بها حَسَنةُ التنسيق بديعةُ الأثاث ، مُزَيَّنةٌ بصُوَرٍ كثيرة . وفي رُكْن من أركانها « بيانٌ » كبير . وعادت السيدةُ بعد قليل تحمِلُ صندوقاً جميلَ الصنع عليه نقوشٌ طريفة ، وفتحتْه أمامي فوجدتُه يحوِي مجموعةً منوَّعةً من الحلوَى اللذيذة الغالية الثمنِ ، وقالت لي وهي تُقدِّمُه إليّ :

كلْ ما تشاءُ منه ، ثم احتفظْ بهِ لك .

فعظُمَ الأمرُ عليّ ، وقلتُ متلعثِماً : كلا ... هذا كثير !

فوضعتْ الصندوقَ على رُكْبتي ، وقالت : إذا لم تأخُذْه ساءَني ذلك منك .

— ولكن ...

وأخرجتْ قِطعةً من الحلوى ، وقالت لى : اِفْتَحْ فَمَك ... اِفتح ... !

وفتحتُ فمى ، فرمتْ بالقطعةِ فيه ، وأخذتْ تضحكُ ، فانطلقتُ أضحكُ أنا أيضًا ... وبعد أن أكلتُ القطعةَ قلتُ لها بلا تردُّد :

سأحتفِظ بالصندوق لئلا أُكَدِّرَكِ ، ولكنى سأُبقيه عندكِ ، وسآخُذُ منه كلَّ يوم ما أحتاجُ إليه .

فنظرتْ إلىّ مليًّا ، ثم قالت :

إنهم سيسألونَك بلا ريبٍ عمَّنْ أعطاك إيَّاه ... فاتنى أن أُفكِّرَ فى ذلك !

ثم صمتتْ برهة ، وهى تحدِّقُ فىّ ، وقالت : أتحبُّ عمَّك ؟

— أُحِبُّه قليلا ، ويُحِبُّنى قليلا !

— والست عيوشة ؟ !

— لا أُحبُّها ولا تحبُّنى ... !

ونظرتُ إليها مدهوشًا ، وقلت : أتعرفِينَها ؟

فقالت في لهجة طبيعية :

وهل من الصعْب أن يعرِفَ الجارُ ما يُهِمُّه من جارِه ؟ ... تعالَ ... !

وقمتُ إليها ، فذهبتْ بى إلى « البِيان » وجلستْ على مقعدِه ، وأجلستْنى على ركبتَيها ، واحتضنَتْنى بإحدى يدَيْها ، وأخذتْ يدُها الأخرى تَنْقُرُ نقرًا خفيفًا على « البِيان » فيصدُرُ عنه نَغَمٌ هادئٌ لطيف ، وأحسستُ فمَها يلمِسُ رأسى ويقبِّلُ شعرى ، ثم قالت فى صوت موسيقىّ هادئ :

كان هناك طفلٌ يسألُنى دائما أن أَعزِفَ له هذا النشيدَ ، وأن أُغنِّيَه له . طفل جميل كان يحبُّنى وأُحبُّه ... فجاءنا ليلةً زائرٌ كريهٌ ممقوت يلبَسُ السَّوادَ ، مُقَنَّعُ الوجه بقناع حالك ، وانتزعه منى ، ثم خرج به إلى الظلام واختفى ...

فسألتها وأنا احدّق أمامي : وأين ذهب الزائرُ بهذا الطفل ؟

فأجابت في صوتٍ مختلجِ النبرات : ذهب إلى حيثُ لا يعودُ النـاس ... ذهب إلى آفاقٍ نائية ، سنذهبُ كلُّنا إليها يوماً ولا نعود ...

وتابعتْ كلامَها ويدُها تنقر على « البيان » هذا النغَمَ الهادئَ اللطيف :

سأُغَنّي لكَ هذا النشيدَ عَلّه يروقُك ، كما كان يروقُ ذلك الطفلَ العزيز . كنتُ دائماً أُجْلِسُه هذه الجِلسة ، فأحوطُه بذراعي ، وأَلْمِسُ شعرَه بفمي ، وأملأُ صدري بعَبيرِ شعره الذهبيّ ... اِسمع ... اِسمع ... !

وأخـذتْ تُغَنّي الأُنشودةَ في صوتٍ عذبٍ حَنون ، ونَغماتُ « البيان » تُصاحِبُها في تناسُقٍ جميـل ، فيتـكوّنُ من امتزاج الصوت بالعَزْف وَحْدةٌ تامة ، حتى إن السامعَ لَيَصْعُبُ عليه أن يفرِّقَ بينهما ، فيخيَّلُ إليه أنّ « البِيانَ » هو الذي يغنِّي ، أو أن السيدةَ نفسَها هي مصدرُ ذلك النَّغَم ، تَعْزِفُه بلا كلام على أوتارِ قلبِها !

أيُّ شعورٍ هـذا الذي كان يَغْمُرُني في ذلك الوقت ؟ شعورٌ عَذْب شَمِلَني باطمئنان هادئٍ لطيف ، شعورٌ أثار بين جوانحي ذكرى محبَّبةً لمشاهِدَ منزويةٍ حُرِمْتُها من قديم ...

وبينما أنا على هذه الحال ، إذ شعَرْتُ بالسيدة تلتفِتُ خلفَها مرتاعةً . فالتفتُّ - وكان الغسَقُ قد أخـذ يَشِيعُ في الحجرة - فوقعتْ عيني على شَبَحٍ بجوار الباب ، يتقدَّم نحوَنا . وتبادرتْ إلى ذهني على الفورِ حكايةُ ذلك الزائرِ الممقوتِ الذي يَلبَس السَّواد ، ويُقنِّعُ وجهَه بنِقابٍ حالك ، ذلك الذي اقتحم منزلَ السيدة في إحـدى الليالي وانتزعَ الطفلَ الذي تحبُّه ويحبُّها من بين أحضانها ، ثم اختفى في الظلامِ ولم يَعُدْ ... فصرختُ : كلا ! ... لا تأخُذْني ... !

... وأُنيرَ المـكان ، ورأيتُ عمّي يسيرُ نحوَنا بقامتِه المَديدة ، وخُطواتِه

المتثاقلة ، عَبُوسَ الوجه ، يصوبُ إلينا نظراته الحادّةَ ، وسمعته يقول :

مامعنى هذا ... ؟

وانتزعَني من السيدة ، وأطبقَ يدَه على يدى بشدّة ، وقال لها :

كيف سَوَّغتْ لكِ نفسُك أن تستولِي على أبناءِ الناس ؟... أنسِيتِ من أنتِ ومن نحن ؟

ورأيتُ السيدةَ تقفُ بجوارِ الباب وتُسْنِدُ يدَها عليه ، وكانت تبدو عليها سِماتُ النُّبْل والتَّرَفُّع ، وقد استطاعت في لحظاتٍ قصيرةٍ أن تَضْبطَ عواطفَها ، وتُعيدَ الهدوءَ إلى ملامِحِها ... ثم قالت له فى صوتٍ شِبْهِ طبيعىّ :

كلاّ ياسيدى ، لم أنسَ ولن أنسَى مَن أنا ومَن أنتم ... وإذا كانت الأخبارُ قد ترامتْ إليكَ بكل ماهو مُخزٍ لى ومُزْرٍ بى فصدِّقْها . ولكنْ هناك شىءٌ واحدٌ أريدُ أن أُوضِّحه لكَ فى شأنِ هذا الغلام ...

فرنَّ صوتُ عمِّى قائلا : عجيبٌ أمرُكِ مع هذا الغلام !

— خفِّف من حِدَّتِك ياسيدى ، فليس أمامَنا الآنَ ما يُثير الغضبَ إلى هذا الحدّ . إن هذا الغلامَ غلامُكم ، وليس لى فيه أيُّ حق ...

— حقّ ؟ هذا ما كان يَنْقُصُنا !

فابتسمت السيدةُ ابتسامةً هادئة ، وقالت فى صوتٍ خافض :

ألا يمكننا أن نتفهَّمَ الأمرَ ؟ تفضَّلْ بالجلوس بضعَ دقائق ، ولا اطالبُك أن تُطيلَ !

فقال عمِّى : أُفضِّلُ الوقوفَ . تكلَّمى من فضلِكِ وأَوْجِزى ... !

فخلعت السيدةُ حِلْيةً مستديرةً دقيقةَ الصُّنع تُشْبِهُ الساعةَ الصغيرة ، وكانت مُدلَّاةً على صدرِها ، تَصِلها برقبتِها سلسلةٌ ذهبيَّة ، ثم فتحتْها وقدَّمتْها إليه وهى تقولُ : انْظُرْ فى هذه الصورة !

فتناول عمى الحلْية ، ونظر فيها ثم قال : واصف ! صورة واصف ؟

ورفع بصره إليها مستوضحاً . فقالت وهى ماتزال تبتسم ابتسامتها الساكنة :

كلا ياسيدى ، ليس واصفاً . دقق النظر فى الصورة مرة أخرى ، هناك اختلاف صغير لا يصح أن يغيب عنك ...

— إذن ؟ !

— هذه الصورة لم تفارق صدرى منذ فقدته ! ... لن أنسى ماحييت ليلته الأخيرة معى ، تلك الليلة التى قضاها فى أحضانى ينظر إلىّ بعينين محمومتين ولا يملك أن يتكلم ... لقد مد الموت إليه يده الظالمة فانتزعه من صدرى بلا رحمة !

وشعرت بيد عمى تضطرب وهى ممسكة بيدى ، ورأيته يشعل سعلته المفتعلة ... ومضت السيدة فى قولها :

لقد أصبح فقده جرحاً عميقاً فى فؤادى تثور علىّ ثائرته بين حين وحين ...

آه ! ... شدّما كنت سعيدة به ... شدّما كنت فخوراً به ... !

ورأيت عمى يتحرك ، ليعتدل فى وقفته ، ولكنه ظل صامتا يستمع بانتباه .

وتابعت السيدة قولها :

وعند ماحضرت إلى حلوان ، لقضاء فصل الشتاء ، ساقت المقادير إلىّ واصفاً ، فكأنما بعث ابنى إلى الحياة ... رأيته يعود إلىّ بعد طول اغتراب !

وسكتت ، وقد أخفت وجهها فى المنديل . وبعد حين همهمت قائلة :

والآن ياسيدى ، ليس عندى ما أقوله بعد هذا ...

ووقف عمى يدور بعينيه أمامه فى حيرة واضطراب ، ولكنه لم يرفع بصره إليها .

وظل كذلك وقتاً يحاول الكلام فلا يستطيع ، ثم استدار يخطو إلى الباب ...

———

كتب المؤلف

ا - فى العربية

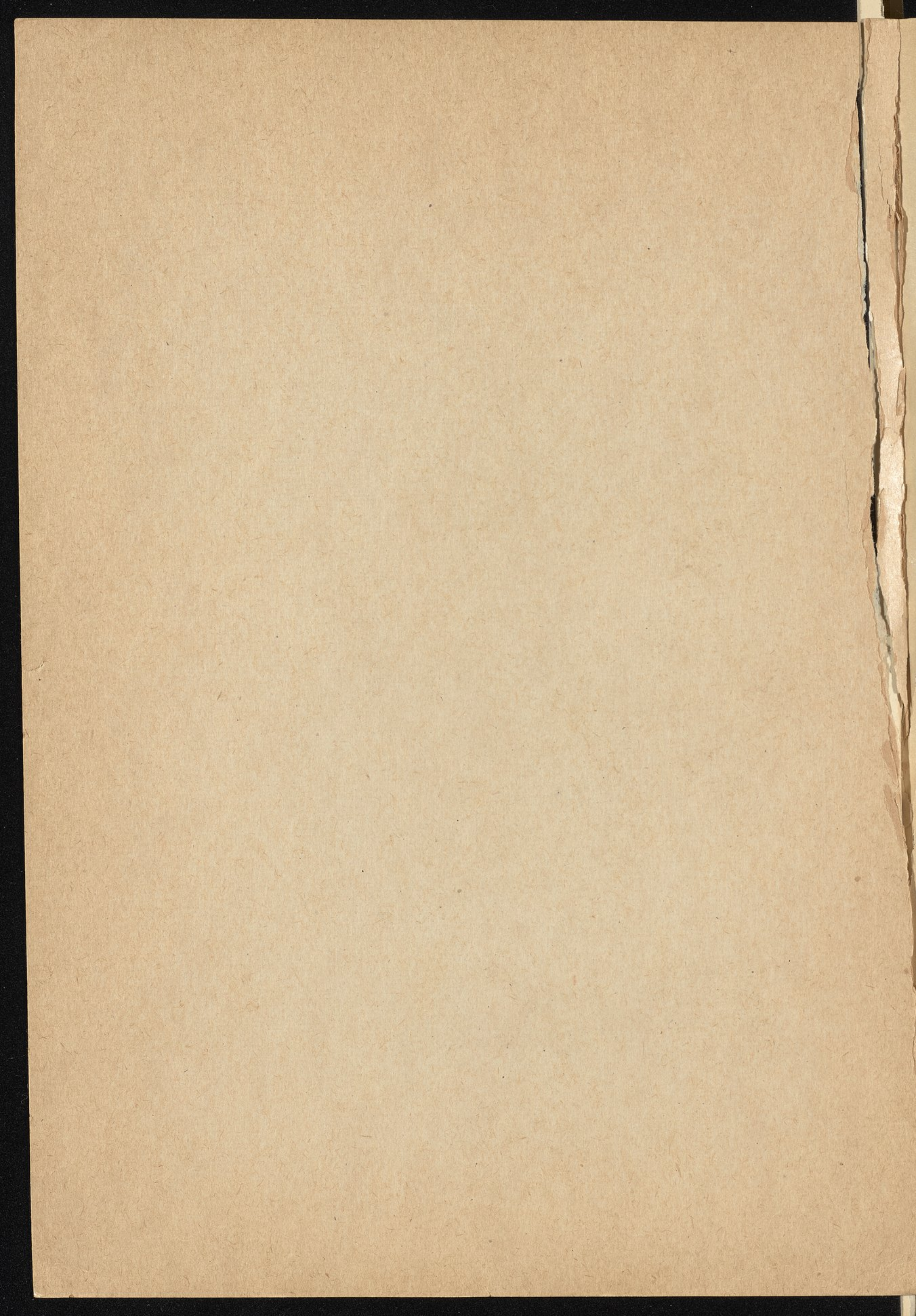
الوثبة الأولى
أبو على عامل ارتيست
الأطلال
الشيخ عفا الله
قلب غانية
فرعون الصغير
نداء المجهول
مكتوب على الجبين
نشوء القصة وتطورها
ثلاث مسرحيات
عروس النيل
المخبأ رقم ١٣
حورية البحر
قال الراوى
عوالى
سهاد أو اللحن التائه
المنقذة وحفلة شاى
قنابل
أبو شوشه والموكب
بنت الشيطان
عطر ودخان
فن القصص
حواء الخالدة
كليوبترة فى خان الخليلى
شفاه غليظة

ب - فى الفرنسية

غراميات سامى
حلم سمارا
بنت الشيطان

ج - فى الألمانية

مجموعة قصص
(ترجمة الدكتور ويدمار)



[طبع الغلاف بمطبعة النيل]

